أحمد الملك

سَأعُود
حِينَ يَفيضُ النَهر

قصص قصيرة

رفيقي للطباعة والنشر
Rafiki for Printing & Publishing

2020

سَأعُود
حِينَ يَفيضُ النَهر

أحمد الملك

رفيقي للطباعة و النشر

اطلع برة A (سوق رجال مافي) عمارة رفيقي جوبا -
جمهورية جنوب السودان
موبايل 211912230704+
2499116721952+
rafiki.com11@gmail.com
Www.rafikigroup.com

حُقوق الطبع محفوظة

2020

الترقيم الدولي: 978-977-6829-00-0

رقم الإيداع: 2020/00000

الإخراج الفني والغلاف:

معمر مكي عمر

سَأعُود
حِينَ يَفيضُ النَهر

سأعود حين يفيض النهر

الطاهر كان يجلس منزعجا في انتظار وصول عزيزة التي تقرأ البخت، جعله نواح القمري فوق أشجار اللبخ يشعر بحزن خارق وبأنه وحيد في هذا العالم، كان يجلس منزعجا منذ ان استيقظ على مشهد حلم رهيب رأي نفسه جالسا بجانب عروسه ليلة زفافه وسط زحام الرقص بالعصي وزغاريد النساء، فيما غروب عاصف يتسرب بين اغصان اشجار النخيل الغارقة في الماء والتي تحيط بالمشهد، ولم تكن هناك من مشكلة سوي انه كان يجلس ميتا وهو يمسك بسيف جده المعلّق في جدار بيتهم.

كان قد أكمل قبل بضع ايام اعوامه الثلاثين، قبل ان يستدعيه عمه ود الحسين ويذّكره بان والده الراحل كان قد خطب له ابنته نورا قبل سنوات، وان ابنته قد بلغت الان سن الزواج وهو لم يفاتحهم بشيء منذ وفاة والده، وقد حان الوقت ليوضح لهم ان كان يرغب في الزواج من نورا ام لا، فقد تقدم للزواج منها أكثر من خطيب وفي كل مرة كان الرد انها مخطوبة لابن عمها.

قال عمه انا لا اريد مضايقتك ابنتي خطابها كثر اذا لم تكن ترغب في الزواج منها لا مشكلة، اردت فقط تذكيرك لأن المرحوم والدك هو اخي الأكبر، وكان لي بمثابة الوالد كما تعلم ان والدنا جدك مات مبكرا، لذلك لم اشأ تزويج البنت دون مشاورتك فاغضب اخي في موته.

قال الطاهر هل يمكن ان تمهلني بضع ايام لأقرر ماذا افعل، لكن عمه قاطعه اريد قرارا الآن!

شعر ان عمه قد خدعه، رغم انه تذكّر انّ والده قال له قبل سنوات ستتزوج من ابنة عمك حين تكبر، فرح وقتها حتي انه ذهب ليبحث عنها، وجدها تلعب الاريكا مع فتيات القرية وهنّ يراقبن أغنامهن ترعي بقايا حقول القمح، حين رأته قادما من علي البعد توقفت علي مبعدة من رفيقاتها كانت لاتزال صغيرة السن لكن كان من الممكن التنبؤ بجمالها الآخذ في التفتح رغم ثيابها القذرة وشعرها الذي اختفي لونه الحقيقي بسبب التراب الكثيف، الذي كان يغطيه اقتربت منه ، كان يقف بارتباك رغم انه كان يكبرها بسنوات الا انها بدت اكبر منه سنا واكثر ثباتا وخبرة وهي تقترب منه، قالت له: ماذا تفعل هنا في مثل هذا الوقت؟

اشار الي الشمس الغارقة في اديم الصحراء وقال مستوحيا شاعرية مدرسية، أتأمل الغروب!

نظرت باتجاه نظراته وللمرة الاولي في حياتها رأت الشمس الغارقة في متاهة الابد.

رأيا معا الخيوط الاخيرة للمغيب الافل تتسرب بين أفرع اشجار السنط الجافة في صخب العصافير فشعرا بقدر مشترك يربط مصيرهما مع خيوط العتمة الزاحفة.

غرقا في المشهد معا حتى شعرا بعاصفة رقيقة تهز المشهد من امامهما حتى بدأت امواج الاشعة الذهبي تتلاطم من حولهما قبل ينتبها فجأة للنغم العاصف الذي كان يعزفه علي الة الطمبور فتي صغير اسمه نورالدين.

انتبهت نورا الي ان الوقت ازف لتعود لجمع اغنامها وقالت له بلهجة آمرة: عد لتذاكر دروسك.

لا ينكر انه أحبها، لكنه سافر بعد ذلك ودرس في جامعة الخرطوم، شارك في منتديات شعرية وليال سياسية، ووقع في الحب عدة مرات، لكن ذكري ذلك الغروب الذي جعلته نغمات الطمبور خالدا في ذاكرته، ظلت تؤرقه عدة سنوات دون ان يحد تفسيرا للأرق الذي سببته له تلك الواقعة، رغم انها لم تؤسس في دواخله سوي شعور مبهم بمصير مشترك، دون ان يلاحظ ان قلقه تجاه تلك الواقعة كان ناجما من يقين في ولاعيه ان ذلك اللقاء الذي اكتنفته البراءة اعطي اشارة لبدء رحلة موته.

قال وهو يتأمل الحاجة عزيزة تنزل حاجياتها من فوق رأسها وتستعد لقراءة حظه

انتهي الزمن الاصلي، لم تفهم عزيزة قوله وطلبت كوبا من القهوة، ذهبت اخته فاطمة لتعد القهوة فيما أسلم هو كل حواسه للحاجة عزيزة

التي القت ودعاتها امام الخطوط التي رسمها على الارض، للوهلة الاولي اتخذت حبات الودع بمجرد ان جمعتها الحاجة عزيزة والقتها ارضا شكل طائر البوم: اشارة الموت، لبثت الحاجة عزيزة للحظة وقد بدا عليها ارتباك حاولت استدراكه حينما مدت يديها لتجمع حبات الودع، اوقفها الطاهر بيده.

قال: يوجد هنا شخص ميت!

دهشت لا من صدق قراءته لاتجاه الحظ بل لأنه كان يتحدث بنفس لسانها، ما لا افهمه قال: الي ماذا يشير هذا السياج المائي الذي تغمره أشجار النخيل، قالت الحاجة عزيزة وهي تتحدث بنفس مستوي صوته: انه عرس، في تلك اللحظة انتبه الطاهر الي انه لم يكن غارقا مع الحاجة عزيزة في توارد مشترك للخواطر بل انه كان يصف الحلم الذي راه في الليلة السابقة والذي جسدته حبات الودع، ولم يتبق له من شك بعد ان اشارت الحاجة عزيزة الي الضوء الغاطس في الماء مظللا بحبات ضوء مائية حواف جريد النخيل الكثيف.

انه اشارة لغروب ناء في الذاكرة.

تناقلت مجالس القرية الخبر: الطاهر خائف من الاقدام على الزواج من بنت عمه بسبب رؤيا رأي فيها مشهد موته ليلة زفافه، كان الطاهر قد وصل الي البيت للتو من المدينة التي قصدها بحثا عن قرض لتمويل مشروعه الزراعي الصغير استعدادا لموسم الدميرة، حين سمع صوت طرقات على

الباب، وجد عمه واقفا دعاه للدخول لكن عمه رفض الجلوس تعلل بان معه ضيفا في البيت ولا يستطيع تركه لوحده فترة طويلة،

قال: هل هذا الذي يقال في القرية صحيح؟ تساءل الطاهر مرتبكا: وماذا يقال في القرية؟

قال عمه يقال إنك تماطل في تحديد ميعاد الزواج لأنك تخشى الموت ليلة زواجك!

اطرق الطاهر قليلا وقال

هذا لم يحدث.

فقال عمه لكنك اتفقت معي ان يتم الزواج هذا العام قبل موسم الدميرة.

صمت الطاهر لبرهة قبل ان يعلن:

الوقت ضيق كما تري يا عمي وهذا الموسم اول موسم لي وهناك مشاكل كثيرة كما تعلم،

عموما قال عمه ارجو ان نسمع منك موعدا نهائيا قريبا.

الطاهر قضى عدة ايام قلقا، بقي اسيرا للذنب: انه بالفعل كان خائفا من شيء ما، انه حتى لم يحاول ان يلتقي نورا.

هل هو خائف بالفعل من الموت، سبق له ان نجا منه عدة مرات، ضربه

رجال الامن ذات مرة شارك فيها في مظاهرة في الجامعة، فقد الوعي وبقي طريح المستشفى عدة أسابيع، حتى استيقظ على مشهد فاطمة شقيقته جالسة تبكي بجانبه منذ ان حضرت بعد سماعها خبر مرضه، وقبل عامين حين قرر الاقامة بصورة دائمة في القرية تاركا حياة الخرطوم التي الفها طوال سنوات سئم فجأة حياته الرتيبة، الحوارات اليومية، المنتديات الشعرية، ورجال الامن الذين كانوا يتتبعون خطاه.

في اول ايام وصوله للقرية وبمناسبة عيد الفطر المبارك شارك مع بعض الأصدقاء، الذين ساعدوه علي مقاومة انهيار الشعور بالوحدة في ايام القيظ بزياراتهم له ولعب الورق معه، شارك معهم في رحلة نهرية كادت تنتهي بمأساة، فالزمان كان شتاء في شهر امشير ورغم الامواج العالية الا انهم اصروا علي عبور نهر النيل، بقارب صغير لصيد السمك للدخول الي جزيرة صغيرة في عمق النهر الذي كان ينتفض بسبب الرياح، وفجأة وفي خضم الامواج اتت موجة عاتية مسحت القارب من تحت اقدامهم، كان موتا محققا فالأمواج لم تكن لتتيح حتي لأولئك الذين يجيدون السباحة عمل اية شيء، الطاهر كان اول من لاحظ في لحظة الهلع انه كان يقف علي الارض رغم ان الماء وصل الي عنقه، صرخ في رفاقه ليتوقفوا حتي انقذتهم مركب كبيرة كانت تمر من المكان .

كانت شقيقته فاطمة قد اعدت له العشاء حينما قرّر فجأة ان يخرج، ترجته فاطمة الا يخرج، لم يفهم لماذا كانت فاطمة قلقة، فقد كانت تلك المرة الاولي التي تطلب منه الا يخرج، عرف انها تستشعر خطرا ما، فاطمة كانت

أكبر منه بعامين ورغم ذلك كانت تعامله مثل امه، وكانت دائما تقول ان امها قبل وفاتها اوصتها ان تهتم به، كان الطاهر يمثل لها كل حياتها لذلك رفضت ان تعيش في بيت زوجها الذي يعمل في السعودية وفضلت ان تعيش مع شقيقها في البيت الذي يذكرها في كل صباح بتلك الايام الغابرة الطيبة.

قال لشقيقته: سأعود بمجرد ان يفيض النهر يا فاطمة

وقالت فاطمة يقولون انه بسبب الجفاف ستمضي عدة سنوات قبل ان يفيض النهر مرة اخري. عندها انتبها الي انهما كانا يكرران نفس عبارات رسائلهما ايام دراسته في الخرطوم،

وجد عمه يصلي العشاء، كان هناك مصباح صغير يضئ المكان وقد تجمع البعوض فوقه

انتظر حتى أكمل صلاته قبل ان يبادره، اريد عمل الزفاف يوم الخميس القادم!

كان اليوم يوم الجمعة والوقت يبدو ضيقا، لكنه رفض محاولات عمه، أعلن: اريد ان أفرغ من هذا الامر قبل ان يداهمنا موسم الشتاء.

قال عمه: عمتك السرة في بورتسودان وقد وعدناها ان نبلغها قبل وقت كاف لتتمكن من الحضور.

قال الطاهر: بقي اسبوع وهو كاف لحضورها ان كانت تريد الحضور

وابناء عمك في الخرطوم وخالتك في سنار كلهم يجب ان نبلغهم قبل وقت كاف. امام اصرار الطاهر وافق عمه في النهاية.

الطاهر شعر بأنه كان يطفو خارجا وانه كان اسيرا في تلك اللحظة لنغم غابر كان يتدفق في ذاكرته في صورة اعصار استوائي.

في الخارج وجد العالم غارقا في ضوضاء الفضة كان ضوء القمر الكامل يضيئ الاحراش والبيوت التي بدت له كأنها في حلم، شعر بنفسه يغوص في ضوء القمر في الصمت المشبع بندي الحقول التي ارتوت بماء النيل الذي غمر الجروف، ورأي اشجار النخيل الغارقة في مياه النهر فعرف انه كان يستعيد حلمه كاملا من حوله وانه كان يري جزءا من الحقيقة التي دنا زمانها، وان فاطمة الغارقة في انتظاره قد بدأت لحظة ان حاولت منعه من الخروج من البيت في طقوس الحداد عليه والتي ستستغرق عمرها كله.

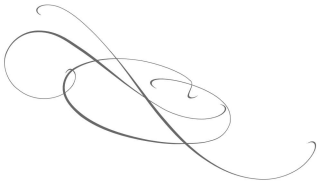

ممنوع توزيع البريد يوم الأحد

عبد الكريم يعمل موزعا للبريد ولصحف الاعلانات، إنها وظيفة جيدة، رغم بعض المخاطر التي لا تخلو منها أية مهنة أخرى، مثل الجو والكلاب. الجو يستطيع دائما التعامل معه مجرد أن يرى النشرة الجوية في الليلة السابقة، لديه بذلة بلاستيكية يرتديها عند هطول المطر. معظم السكان يضعون على أبوابهم تحذيرا إن كان لديهم كلاب شرسة لا تحب الغرباء. لذلك يحاول وضع الرسالة بهدوء في صندوق البريد وينزلق هاربا قبل أن يتعرّف الكلب الى رائحته ويبدأ في العواء. في البيوت الكبيرة يكون صندوق البريد دائما في الخارج في الفناء بجوار باب الحديقة، يقوم بوضع البريد فيه دون مشاكل في العادة. لكن المشكلة دائما في الشقق الصغيرة التي يتعين عليه أحيانا طرق الباب إذا كانت الرسالة حجمها كبير أو يجب عليه تسليم طرد، أو حين يتطلب تسليم الرسالة المسجّلة توقيع صاحبها على ورقة تفيد استلامه.

حدثت له مشكلة صغيرة مرة واحدة مع رجل يبدو أنه لم يكن يحب

صحُف الاعلانات. في العادة فإنّ من لا يرغب في تلقي صحف الاعلانات يقوم بوضع ملصق صغير مطبوع بعلامات حمراء واضحة للعيان، لكن البعض لا يهتمون بإحضار هذا الملصق، ويكتبون بخط يدهم انهم لا يريدون اعلانات، واثناء عجلة التوزيع قد لا يلاحظ الموزع ذلك، خاصة إذا لم يستخدم صاحب البيت حين يكتب الورقة بخط يده ألوانا تجعل إعلانه ظاهرا. ذات مرة وضع عبد الكريم صحيفة الاعلانات في صندوق بريد أحد البيوت وبعد ثانية واحد فتح صاحب البيت الباب، وسأله بفظاظة: كيف تستطيع توزيع الرسائل في عناوينها الصحيحة وأنت أعمى؟

تساءل عبد الكريم مندهشا دون أن يفطن لما حدث، هل أنا أعمى؟

أشار له الرجل لورقة كبيرة كتب عليها بخط يده أنه لا يريد استقبال إعلانات مع بريده وقال: كيف لا تكون أعمى وانت لم تر هذه؟

لاذ مرة بالفرار من هجوم كلب، كان عبد الكريم يحمل رسالة مسجلة، حين انفتح الباب مد يده بالورقة للتوقيع عليها ففوجئ بأسنان الكلب في وجهه بدلا من وجه صاحب البيت! ترك الورقة والرسالة والحقيبة البلاستيكية التي يحمل فيها الرسائل ولاذ بالفرار، عاد بعد أن تأكد أنّ الباب أغلق ووجد حقيبته في مكانها. وجد ان صاحب البيت ترك توقيعه على الورقة ووضعها له داخل الحقيبة مع رسالة اعتذار، لأنّ الكلب سارع بالخروج حين قام صاحب البيت بفتح الباب!

في المرة الأخيرة كان عبد الكريم يشعر بأنه ليس على ما يرام، يبدو أنها

أعراض الانفلونزا اللعينة، أسوأ كارثة يمكن أن تحل بساع بريد، شرب كوبا دافئا من عصير الليمون مع مغلي الزنجبيل، وارتدى أثقل ملابسه ثم خرج مبكرا للعمل، بعد إن استلم الرسائل التي سيقوم بتوزيعها، فكر في العودة الى البيت أولا فقد شعر برغبة في الذهاب الى الحمام، تسبب له الانفلونزا دائما إسهالا حادا، لكنه قرر أن يواصل عمله، ويمكنه قضاء حاجته حين يتوقف منتصف النهار لتناول وجبة سريعة.

قام بتوزيع عدد من الرسائل وفجأة شعر بإعصار في بطنه، نظر حواليه فوجد أجمة أشجار صغيرة أمام أحد البيوت، فسارع اليها، وضع رسائله جانبا وجلس يقضي حاجته بعد أن حاول التوغل قدر الامكان داخل أجمة الاشجار، ذلك ممنوع حسب القانون، لكنه يؤمن ان القانون يجب أن يترك لمعالجة الاشياء الكبيرة، كيف يتدخل القانون في مؤخرة شخص فقد السيطرة على أعاصير بطنه؟ هل هناك قانون يجيز أن يتغوط الانسان على نفسه؟

قبل أن يفرغ جيدا، انفتحت نافذة أحد البيوت التي تقع خلف أجمة الأشجار، والتي اكتشف متأخرا أن ساكنيها بإمكانهم رؤيته ان نظروا من خلال النوافذ التي تطل على اجمة الاشجار، ودون ان يرى اية شخص سمع صوتا يهتف عاليا: ممنوع التغوط هنا يا سيد! هذا ليس مرحاضا عموميا!

اضطر ان يتوقف دون ان يكمل قضاء حاجته! نظّف نفسه بسرعة بمنديل ورق وارتدى ملابسه، تلفت حواليه حذرا مخافة أن يكون أحدهم قام بإبلاغ البوليس، لكنه لم ير شيئا ومن ثم جلس قليلا على اريكة في

الشارع، ثم حمل رسائله وواصل عمله.

لحسن الحظ انتابته رغبات خفيفة لقضاء الحاجة استطاع كتمها بقية اليوم حتى أنتهى من عمله. حين عاد الى البيت مساء كان يشعر بإرهاق شديد، اليوم التالي هو يوم الأحد بإمكانه النوم طوال اليوم، كان يشعر بنوع من الغضب والاحباط لرد فعل الرجل الذي صرخ فيه بأن المكان ليس مرحاضا عموميا. يا له من شخص غريب! نعم القانون يمنع ذلك لكن الظروف تضطر الكثيرون على قضاء حاجتهم في الشوارع الجانبية أو تحت الأشجار في الحدائق العامة. لقد رأى كثيرا شبابا يشربون الجعة ويتبولون واقفين في كل مكان، حين يشرب الانسان الخمر لا يكترث كثيرا للعواقب الصغيرة، مثل ممنوع التبول أو ممنوع الكتابة على الجدران! يتبولون ويكتبون ويرسمون في كل مكان!

مع كل التجارب السيئة التي مرّت عليه أثناء عمله لم يشعر بالغضب مثل تجربته ذلك النهار، ذات مرة اكتشف في حقيبته رسائل لم يقم بتوزيعها يوم السبت، استيقظ مبكرا يوم الأحد وقام بتوزيعها، حين ذهب الى مكتب البريد يوم الاثنين وجد أن بعض الناس قدموا شكاوي ضده لقيامه بتوزيع البريد يوم الأحد! دهش في البداية لكن مديره شرح له الأمر: بعض سكان الحي من المتدينين، الذين يؤمنون بحرمة العمل يوم الأحد، لا يقومون بأي عمل يوم الأحد ولا يسمحون حتى بوصول رسائل الى صناديق بريدهم، تفهم الأمر باعتباره ثقافة محلية، وتجنّب منذ ذلك الوقت توزيع أية بريد يوم الأحد. لا يستطيع التمييز بين المتدينين وغيرهم! نفس المشكلة الدائمة:

المتدينون يتمسكون بأشياء صغيرة. يشعر أنه يحب اولئك السكارى المرحين الذين لا يؤمنون بأي شيء، لكنهم يحترمونه ويرحبون به حين يقوم بتوصيل البريد ويعطونه هدايا صغيرة أحيانا!

حكى له صديق انه كان يقطع بسيارته الطريق في حي يكتظ بالمتدينين، ولسوء حظه، كان قد ضل الطريق وحين حاول التوقف لسؤال أحدهم عن الطريق غرزت عجلات السيارة في الوحل ولم يستطع التحرك، اضطر لطرق أقرب باب مجاور طالبا المساعدة، شرح له الرجل أنه لا يستطيع مساعدته لأن اليوم يوم أحد لا يقوم فيه في العادة بأداء اية عمل! لكن الصديق كان من النوع الذي لا يقتنع أبدا بأية وجهة نظر، بدت له الفكرة سخيفة، الاديان نفسها تحض على مساعدة المحتاج واغاثة الملهوف فكيف تمنع شخصا ما من مد يد المساعدة؟ شرح للرجل وجهة نظره وانه لا يستطيع ان يترك سيارته، او يبق في الانتظار طويلا بسبب انخفاض درجة الحرارة وبدء تساقط الثلوج، ما يعني ان الامر سيزداد سوءا وسيصبح صعبا إخراج السيارة من الوحل.

استمع الرجل بصبر وشرح له مرة اخرى وجهة نظره، انه وطوال أكثر من اربعين عاما لم يقم بأية عمل في يوم الأحد، لأن ذلك حسب اعتقاده لا يجوز، لكن صديقنا وجد ذلك نوعا من البلاهة واستمراء الكسل، ان يقضي الانسان اكثر من اربعة عقود دون عمل في يوم محدد، وشرح للرجل ان الديانات كلها تحض على فضل العمل، ولا تمنعه ابدا وان المسلم يعمل حتى في يوم الجمعة، يؤدي صلاة الجمعة في الجامع ثم يستأنف عمله بصورة عادية بعد الصلاة، رغم ان يوم الجمعة عند المسلم هو يوم غير عادي مثل

يوم الأحد عند المسيحيين.

يبدو ان الرجل سئم الحوار وشعر انه لن يصل لنتيجة مع هذا الرجل الغريب، لم يقل كلمة واحدة دخل الى البيت واحضر مفتاح سيارته ومعه حبل طويل، جاء وربطه في عربة صديقنا ثم سحبها من الوحل الى الخارج وقام بأخذ معداته وغادر المكان دون ان يتفوه بكلمة واحدة ولا حتى ليرد على شكر صديقنا له.

قال عبد الكريم لصديقه بعد ان سمع القصة: يا لك من لحوح مزعج، لقد جعلت الرجل يكفر!

في اليوم التالي شعر عبد الكريم بأنه أفضل كثيرا من اليوم السابق، شكر المتدينين، من يدري ربما لولا هؤلاء المتدينين كان سيضطر للعمل حتى يوم الأحد! لكنه كان لا يزال يشعر بضيق وغضب من تصرف الرجل الذي قطع عليه قضاء حاجته! بعد أن ذهب الى الحمام جاء ليجلس أمام التلفزيون، يشرب كوب القهوة ويأكل الخبز، ازاح الستارة فرأى منظرا مألوفا، توجد غابة صغيرة خلف البيت الذي يسكن فيه، اعتاد بعض الشباب الذين يقضون ليلة الأحد في نوادي الرقص الليلية ان يتوقفوا للتبول فيها بسبب افراطهم في شراب الجعة طوال الليل.

رأى شابا يهم بخلع بنطاله يبدو أنه يعاني مثله من الاسهال، أو أنه أفرط في الأكل والشراب في الليلة المنصرمة، بمجرد أن جلس الشاب ارضا وشعر عبد الكريم ان الرجل يستعد لقضاء حاجته، حتى سحب زجاج النافذة

للأسفل وصرخ بصوت عال:

لا ايها السيد هذا ليس مرحاضا عموميا!

ارتدى الشاب ملابسه بسرعة ولاذ بالفرار! شعر عبد الكريم بأنه أصبح أفضل حالا وأكثر استعدادا لمواجهة شهور شتاء طويلة من توزيع البريد وكلابه ومشاكله الأخرى!

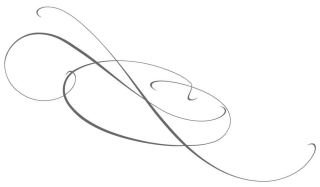

الدبابة

قبل اسبوع تسلمت الدبابة التي اشتريتها من سمسار يقطن في جوارنا، كانت صفقة ناجحة، رغم ان بعض معارفي أصابتهم الدهشة حينما وجدوها رابضة تحت شجرة النيم امام بيتنا، ولاحظت بعد ذلك أن معظمهم كفوا عن زيارتنا بأعذار مختلفة، وحتي مدرّس اللغة الانجليزية ذلك الرجل السقيم الذي يصدر صفيرا متقطعا حينما يشاركني دخان الشيشة توقف عن الحضور لإعطاء ابنتي دروس اللغة الانجليزية دون أن يتسلم بقية أتعابه، واعترف لي بائع اللبن وهو يرتجف في المرة الاخيرة التي يبيع لنا فيها بعد ان فوجئ بي وبابني الاكبر ونحن نغسل الدبابة، اعترف بأنه مزج اللبن مع الماء مرارا في الفترة السابقة وحاول ان يبرر ذلك بظروفه الاقتصادية الصعبة ولكي يثبت جريمته المائية بالمستندات، أبرز اوراقا تثبت المبالغ الضخمة التي يتعين عليه دفعها والا طرد اطفاله الخمسة من المدارس، كما أبرز خطابا رسميا من ادارة الضرائب بإمهاله اسبوعا واحدا لتسديد ما عليه من

التزامات ضريبية والا قامت الادارة بمقاضاته، وفكرت بخبث : إنه الوحيد في العالم الذي يدفع ضرائب علي بيع الماء !.

لم أكترث لاعترافاته وواصلت مع ابني الاكبر عملية غسيل وتشحيم الدبابة، وأثناء سيل اعترافاته كنت اطلب منه مساعدتي فيستجيب بصوت متهدج: ناولني قطعة القماش تلك، او املأ هذا الجردل من صنبور الماء في الفناء، ولاحظت ان زوجتي كانت تتشاجر معه بسبب فضيحة الماء وفي نفس الوقت جعلته يساعدها أثناء الشجار: ناولني تلك المكنسة، ارفع هذا البرميل وضعه امام الباب، فيستجيب لها بصوت متهدج، بل انني وجدته يمسح الأرض بقطعة من الخيش وكان يستجيب معتذرا لتعنيف زوجتي فتصرخ فيه : انت لا تصلح لأي شئ سوي بيع الماء!، أعد مسح هذه المنطقة، اضغط قطعة الخيش قليلا، أنظر بسبب الماء الذي بعته لنا تدهورت حاسة السمع لدي ابني الاصغر وتساقطت اسنانه، فيحاول بائع اللبن اثناء انهماكه ملاطفة الصبي السادر في خيالاته يصفر له بصوت حاد كأنما ليثبت أنه لم يكن السبب في ضعف سمعه، وحينما فرغ من نظافة البيت كله، كنا نحن قد فرغنا من غسيل الدبابة فبدت كأنها لم تستعمل قط، فرغ بائع اللبن من نظافة البيت ورأيت الدموع تملأ عينيه وهو يودعنا مغادرا الي الابد .

في الايام التالية لشرائنا الدبابة لاحظت تحسن الخدمات التالية : فقد أصبح الجزار يعتني بإعطائنا أفضل ما عنده، بدلا من العظام التي كان يبعث بها الينا، كما ان الكهرباء لم تنقطع ولا مرة واحد منذ توقفت الدبابة

أسفل شجرة النيم امام بيتنا فيما كل جيراننا يرفلون في ظلام شامل حتي ان زوجتي عزت للدبابة بركات كهربائية، كما لن تنقطع المياه عن البيت منذ وصول الدبابة، ولأن بيتنا كان الوحيد الذي ينعم بهذا الرخاء المائي، فقد اضطررنا للوقوف طوال اليوم انا وأبنائي الثلاثة لتنظيم صف الجيران الذين تقاطروا للحصول علي الماء واضطررنا للتسلح بالعصي لتنظيم الهجوم المائي، وبسبب الدبابة احرزنا ميزة عدم الوقوف في صف الخبز في المخبز القريب من بيتنا، وفي الايام القليلة التي تلت تسلمي للدبابة ظهر معظم مديني ابي الذين اختفوا بعد وفاته وانكروا لاحقا حتي معرفته، وكان علي فحص عشرات المستندات التي تثبت أنهم لم ينكروا ما عليهم من ديون لقاء معاملات مع المرحوم والدي ولكن الظروف الاقتصادية العصيبة التضخم الوطني، والضرائب، وتغيير العملة الوطنية هي الاسباب التي ادت لتأخيرهم سداد ما عليهم، ورغم أنني استمعت لوعود كثيرة، الا أنني لم أقبض ولا مليما واحدا، بل إنني اضطررت للقيام بواجب الضيافة المكلف للدائنين فارتفعت بالتالي ديوننا عند الجزار وبائع الخضروات، وبدا ان الرابح الوحيد من تلك الاعترافات المكلفة هو المرحوم والدي اذ لم يكف الزوار عن قراءة الفاتحة علي روحه والدعاء له بالمغفرة لصبره الطويل عليهم والذي امتد لما بعد موته .

حدث ذلك قبل اسبوعين، كنت مدعوا مع اسرتي لحضور حفل زفاف، أعترف أنني كنت اجلس متأففا بسبب شجار روتيني مع زوجتي قبل حضورنا وجهت لي اتهامها اليومي بأنني أبدد ما تركه والدي من مال

ولا أقوم بأي عمل، لم تقتنع كعادتها بدفاعي بأنني في انتظار تحقق فرصة مناسبة، لم تقتنع بدفاعي رغم انني استخدمت للمرة الاولي تعابير اقتصادية مهولة سمعتها في جهاز الراديو مثل التضخم وانهيار العملة الوطنية امام الدولار الامريكي وتأخر موسم الخريف هذا العام وانقطاع الكهرباء بسبب تدني منسوب النيل الأزرق كما حاولت حشد مبررات صحية : ان العمل في هذا القيظ حيث الكهرباء مقطوعة يرهق القلب، ان التضخم الوطني قد يقود الي تضخم في الطحال، أن الانهيار المفاجئ للعملة الوطنية قد يؤ

كنت اجلس متأففا، شاعرا للمرة الاولي بالدونية كأنني العاطل الوحيد وسط هذا العالم كله، رغم شعوري الجانبي بالفخر كوني لم أكن موظفا، كان صوت المغني سقيما، وبدا في لحظة أنه لا يغني مستخدما لسانه، بل قدميه، كانت الفرقة الموسيقية من خلفه تؤدي عرضا ارتجاليا لم يكن ينقصه سوي غبار متصاعد ليبدو في صورته الحقيقية : شجار جماعي تستخدم فيه الاحذية، وكانت الاغنية طويلة حتي حسبت أنها لن تنتهي فقد كان كل مقطع جديد يولّد عدة مقاطع ارتجالية جديدة بمعادلة استنساخ هندسية لاشواق مبتذلة. تتخللها أوهام يومية مستهلكة، ثم بدأ توزيع العشاء ولم ارحب بفكرة العشاء الاّ لأنني تخيلت أن شيئا ما سيحدث بعد توزيع العشاء يؤدي لايقاف دائرة الغناء الجهنمية، كان العشاء رديئا جدا قطعة جبن صغيرة تصلح لفأر صغير مثل تلك التي تظهر في افلام الرسوم المتحركة، وقطعة لحم باردة وقطعة بطاطس صغيرة وجافة، مددت يدي لاتناول قطعة خبز صغيرة وادفع بصحن العشاء جانبا، وفجأة جذب

شخص ملتح يضع فوق رأسه عمامة ضخمة تكفي لاربعة رؤوس، جذب مقعدا وجلس بجانبي، كانت المرة الاولي التي اراه فيها رغم أنه ذكر لي أنه شاهدني بضع مرات وانا العب الكرة في الساحة الصغيرة أمام بيتنا مع مجموعة من الاطفال!، لم اكترث لملاحظته الخبيثة وتحادثنا باقتضاب في بعض الهموم اليومية: ارتفاع اسعار البصل وانقطاع الكهرباء وركود حركة البيع والشراء، والتضخم، وفجأة كشف عن مهنته: سمسار، جذبت مهنته اهتمامي فقد كنت لا أصدق حتي تلك اللحظة أن يعترف شخص ما بأنه يعمل سمسارا، لأنني لم أفهم قط فكرة ان يجد شخص ما منفعة حينما يبيع أشخاص آخرون ممتلكاتهم .

شرح لي بأسلوب مبسط دورهم الطليعي في المجتمع لمحاربة الكساد، وحاول الباس وظيفته مظهرا اخلاقيا حينما شرح لي ان الظروف الاقتصادية المتدهورة أجبرت أسرا ثرية كثيرة علي التنازل وبيع جزء من ممتلكاتهم من أجل تأمين تكاليف الحياة، واعلن : نحن نقوم نيابة عنهم بتحمل ذل البيع!، وفجأة عرض علي دون مقدمات شراء دبابة مستعملة ولكن بحالة جيدة للغاية، ومضي دون أن يهتم بمعرفة رد فعلي في شرح مزايا الدبابة، لم يكن بمقدوري الرفض: نقطة ضعفي الوحيدة، وافقت بحذر طالبا في البداية وقبل اتمام الشراء أن أفحص أوراق الدبابة لتجنب أي احتكاك محتمل عند اعادة عملية ترخيصها، لكنه طمأنني الي أن أوراقها كلها مكتملة .

في المساء أخبرت زوجتي بالأمر ويبدو انها لم تصدقني لأنها واصلت دون أدني اكتراث قطف أوراق الملوخية التي يبدو انها كانت سوف تعدها

لغداء اليوم التالي، لاشك أن شراء دبابة هو أمر مفيد للنزهات العائلية في العطلات او للتسوق في أيام الجمعة ولاشك ان وجودها سيضعف موقف الباعة التفاوضي لتحديد سعر سلعة ما، إنني قطعا لن أكون أحمق مثل ذلك الذي اشتري الهرم الاكبر، كان من الافضل له شراء الهرم الاصغر والاستفادة من فرق الثمن لشراء شوارع من حوله بدلا من شراء هرم ضخم ثم الاكتفاء بمشاهدته من علي البعد لأن أصحاب الشوارع المؤدية اليه لن يسمحون لك بالمرور!، لقد سمعت قصة شخص اشتري قطارا، يا له من أحمق!، اذ كيف سيتسنى له تأمين احتياجاته من زيت الماكينات الباهظ التكلفة؟ لابد أنه سيضطر لاستخدام زيت المحركات المستعمل والأقل تكلفة نسبيا، وكيف سيؤمن لقطاره الوقود غير المتوافر الا في السوق السوداء، وكيف سيأمن علي قطاره من عبث أبناء الجيران الذين سيمارسون داخله لعبة الاختباء وقد يلقون حبات الزلط داخل المحرّك، كذلك الارضة، سمعت أن الارضة يمكن ان تأكل الحجر، فكيف بقطار ضخم ومتهالك؟

بعد يومين من لقائنا قمنا بتوقيع العقد، ولكي لا أبدو بمظهر شخص جاهل يشتري كل ما يعرض عليه، فقد فحصت الدبابة جيدا، تأكدت من سلامة عمود نقل الحركة، وألقيت نظرة علي كابينة القيادة حيث أكد لي السمسار أن كل الاشياء أصلية حتي جهاز التسجيل كان هو الجهاز نفسه الذي وضعته الشركة الصانعة، واستلقيت أرضا كي أتأكد من أن الزيت لا يتسرب من المحرك، وتسلمت تقريرا مضطربا حول استهلاك الدبابة للوقود، بدا لي معقولا خاصة وأنها تعمل بالمازوت حيث يمكنني في

حالة انقطاع الوقود أن ألجأ الي أحد المخابز للحصول علي الكمية المناسبة، فحصت الاشارات في الامام والخلف ووجدتها كلها سليمة ثم فحصت الجنزير الضخم ووجدته في حالة جيدة رغم انه يبدو متهالكا ربما من كثرة استخدامه كما فكرت، ثم فحصت المدفع ووجدته سليما وعرفت من بقايا خيوط العنكبوت والصدأ داخله أنه لم يستخدم مطلقا، ثم طالعت اوراق الترخيص دون ان اترك أقل التفاصيل اهمية .

في النهاية قدت الدبابة لوحدي بمساعدة كتيب صغير، وللوهلة الاولي فوجئت بأن قيادتها والتحرك بها كان في غاية السهولة بعكس ما كنت أتوقعن لقد احدث مرور الدبابة في الشارع الرئيسي هلعا ارتجاليا – وهذا امر طبيعي- واعتقد البعض وجود تحرك انقلابي، أصبح المشهد مثيرا بعد قليل فقد هرول أمامي كل الباعة الجوالة ، باعة الملابس وباعة الاحذية وباعة السجائر ومن خلفهم باعة المشروبات والاطعمة وماسحو الأحذية، وقارئات الحظ اللائي فشلن في التنبؤ بكارثة ظهوري الوشيك قبل وقت كاف، ولاذ بالفرار حلاقون متجولون ومن خلفهم ركض زبائنهم بنصف ذقن وهم يحملون المرايا الضخمة التي كان يتعين عليهم حملها حتي أثناء عملية الحلاقة، ولاذ بالفرار أيضا رجل كان يؤدي دورا بطوليا يسحب خلاله عربة بأسنانه ويحطم الطوب بضربة واحدة من كفه الضخمة .

وفي فوضي الهروب الشامل استوقفني شرطي سير طالبا التأكد من سلامة اوراقي، فحص رخصة الدبابة وتأكد من سلامة لوحة الارقام وان الارقام في مقدمة الدبابة ومؤخرتها متطابقة ثم أمرني بتجربة الكوابح فتأكد

أنها سليمة وفحص الاشارات الضوئية فوجدها سليمة، كذلك تأكد من أنني احمل رخصة قيادة سارية المفعول، وزاد علي ذلك بأن أقحم انفه في وجهي ليتأكد من أنني لست مخمورا، ثم أطلق فجأة صرخة داوية في أذني ليراقب رد فعلي ويتأكد أنني لست مخبولا، الأ أنني لبثت هادئا ومبتسما في انتظار عثوره علي ثغرة ما لأسلمه مفاتيح الدبابة وأمضي علي قدمي، الا أنه بعد أن وقف محتارا بضع دقائق عاجزا عن اتخاذ قرار بسبب شعوره بوجود خطأ ما دون أن يتمكن من تحديده، وفجأة حزم أمره ورفع كفه بتحية عسكرية وأصدر أمرا : تفضل سعادتك

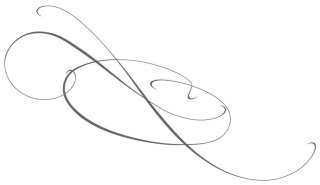

اليوم يوم زفافي

اوقف عبد الرحيم سيارة اجرة وطلب من السائق الاتجاه الي منطقة الصحافة، كان يبدو متعجلا فاليوم يوم زفافه، قبل قليل تمت مراسيم اجراءات عقد الزواج، وانفض الحضور علي امل العودة لحضور الحفل مساء، عبد الرحيم كان مرتبكا قليلا لكنه كان واعيا لأهمية الزيارة التي عليه القيام بها الآن، رغم شعوره بالإرهاق من سيل الزيارات التي تعين عليه القيام بها منذ حضوره قبل ايام من إحدى دول الخليج التي يعمل بها منذ سنوات،

توقفت السيارة امام بيت صغير تظلل مدخله شجرة نيم وهرع عبد الرحيم داخلا، كان المساء يرخي سدوله وسمع دقات الساعة السابعة تنطلق في جهاز الراديو، استقبله عمه المقعد بحفاوة بالغة وبدموع غزيرة جعلته يستغرق في البكاء، فمنذ وفاة والده المفاجئة قبل سنوات تولي عمه

عبد الكريم تربيتهم هو واخوته وتحمل نفقة تعليمهم، كان البيت خاليا الا من عمه الذي ذهبت زوجته الي بيتهم للمشاركة في مراسيم الزواج، جلس بجانب عمه وساعده علي اداء صلاة المغرب، ثم دخل الي المطبخ وصنع كوبين من الشاي له ولعمه، وقبل ان يستأذن خارجا قام بتشغيل جهاز التلفزيون الصغير في الفناء وفي تلك اللحظة جاءت جارتهم للاطمئنان علي الرجل المقعد فوجدت عبد الرحيم يساعده للانتقال من الكرسي الي فراشه .

قال العم: اذهب يا ولدي لابد انهم في انتظارك.

فقال عبد الرحيم سنأتي مع العروس غدا للسلام عليك.

وسأله العم: هل ستبقي طويلا أم أنّ عطلتك قصيرة، فقال عبد الرحيم للأسف عطلتي قصيرة لابد ان اعود خلال اسبوعين فقط والا واجهتني مشكلة في اقامتي هناك.

ودعه عبد الرحيم مندهشا من الدموع الغزيرة التي كانت تنطلق من عينيه، هاتف خفي لم يكترث له كان يوحي بأنها دموع الوداع، انه لن يري عمه مرة اخري.

خرج من البيت مسرعا علي امل ان يستقل اول سيارة اجرة يصادفها، كان البيت يقع على شارع جانبي صغير لذلك قرّر ان يحث الخطي باتجاه الشارع الرئيسي حيث سيسهل الحصول على سيارة اجرة، لحظة ان ابتعد عدة خطوات من بيت عمه توقفت بجانبه فجأة سيارة

بيضاء صغيرة، هبط منها بسرعة ثلاثة رجال، بادره أحدهم، هل انت عبد الرحيم محمد عبد الكريم، حين رد عليه بنعم، عرّف السائل نفسه بأنه من جهاز الامن والمخابرات، ورفع بطاقته في وجه عبد الرحيم وأعادها بسرعة الى جيبه قبل ان يتحقق عبد الرحيم بسبب ارتباكه من هوية الرجل. طلب الرجل منه بهدوء ان يرافقهم لمباني الجهاز فقط لبضع دقائق للإجابة على بعض الأسئلة.

ركب عبد الرحيم معهم مندهشا، معتقدا في البداية ان هناك خطأ ما، فهو لم يقم بأية نشاط يبرر اعتقاله من قبل جهاز الامن.

قطعت السيارة عدة شوارع مظلمة، دون ان ينبس اي من مرافقيه بكلمة واحدة، قبل ان تتوقف في النهاية امام مبني معتم الواجهة، في الداخل كانت هناك صالة استقبال واسعة يجلس في نهايتها شخص امامه عدد من اجهزة التليفون، طلب احد الثلاثة من عبد الرحيم الجلوس لبضع دقائق، ثم اختفي الرجال الثلاثة من باب جانبي، لبث عبد الرحيم فترة جالسا دون ان يفهم شيئا، ثم بدأ يشعر بالقلق، نظر الي ساعة يده فعرف ان الحفل سيكون قد بدأ ولابد ان الجميع بدأوا يلاحظون غيابه، مرت ساعة واحدة، تقدم عبد الرحيم من الرجل الجالس في الاستقبال، لم يكترث له الرجل وواصل حديثه في التليفون وكان يقطع حديثه فقط ليرد علي جهاز اخر ، بقي عبد الرحيم منتظرا لدقائق بدت له دهرا.

وفي النهاية التفت اليه الرجل سائلا عما يطلب، قال له عبد الرحيم لقد

أحضرني ثلاثة رجال الي هنا وطلبوا مني انتظار بضع دقائق، ولكن مضت أكثر من ساعة ولم يحضر أحدهم، اشار الرجل لعبد الرحيم ليجلس، وقال انه سيسأل عن الامر.

عاد عبد الرحيم الي مكانه تاركا الرجل يتصل عبر الهاتف، مضت عدة دقائق قبل ان يستدعيه الرجل مرة اخري ويبلغه بانه لم يجد احدا يعرف سبب استدعائه، ولابد ان ينتظر لحين عودة الاشخاص الذين قاموا باستدعائه.

ابتلع عبد الرحيم جفاف حلقه وقال: ولكن اليوم يوم زفافي والساعة الان ...

قاطعه الرجل بجفاء: لا تضيع وقتك فانا لا أستطيع ان افعل لك شيئا.

تجاوزت الساعة الثامنة بقليل، لم تبق على نهاية الحفل سوي حوالي ساعة واحدة، فبسبب حظر التجول تنتهي الحفلات قبل الساعة العاشرة، لابد انّ المدعوين تناولوا عشاءهم الان وبعضهم غادر المكان دون ان يراه، شعر بالحزن يعتصر قلبه، تذكر والدته التي ستكون قلقة للغاية لغيابه ونورا التي تجلس وحيدة في ثياب الزفاف، تذكر قصة شخص هرب ليلة زفافه، مفكرا هل من الممكن ان تعتقد نورا انه هرب في هذه الليلة تحديدا، هل سيفكر الناس انه لو كان يريد الهرب لفعل ذلك قبل عقد الزواج، لما حضر اصلا من خارج الوطن.

ثم اجتاحته نوبة امل، انهم سيطلقون سراحه بمجرد ان يكتشفوا انهم

اخطأوا بالقبض عليه، تذكر كلامهم انهم يريدونه لبضع دقائق فقط، وفكّر انهم كنوع من الاعتذار سيعيدونه بسيارتهم الي بيت عروسه خاصة وهو لن يستطيع التحرك بعد حلول ميقات حظر التجول.

مضت ساعة اخري دون ان يظهر أحد، استبد القلق بعبد الرحيم فغادر مقعده متجولا في الصالة الواسعة، ثم شعر بالتعب فعاد الي مقعده، لابد ان الحفل قد انتهي الان وشرع العمال في تفكيك خيمة الزفاف الضخمة، ولابد ان اخوته يجوبون المستشفيات ومراكز الشرطة بحثا عنه.

فكّر قليلا ثم توجه الي الرجل الجالس في الاستقبال مرة اخري.

قال بصوت حزين، هل يمكنني استخدام الهاتف، فهز الرجل رأسه رافضا وقال، ان ذلك ممنوع!

عاد عبد الرحيم مرة اخري الي مقعده وبحث عن سيجارة في جيبه فلم يجد شيئا، وفي تلك اللحظة تذكر بذلة زفافه التي كان مفترضا ان يعود قبل الحفل للمصبغة التي اودعها فيها لتنظيفها، اشارت عقارب الساعة الي العاشرة مساء، ميعاد حظر التجول، بدأت الحركة في الخارج تهدأ، واختفت تدريجيا اصوات السيارات.

اسلم عبد الرحيم جسده المنهك وترك رأسه نهبا للهواجس قبل ان يستغرق الي نوم مشوش، ليستيقظ فجأة علي مشهد الرجال الثلاثة وقد احاطوا به، سحبوه خارجا في سيارة انطلقت في الظلام.

صباح اليوم التالي كانت نورا لا تزال غارقة في دموعها، وقد تجمعت حولها بعض الفتيات يحاولن مواساتها، كان هناك ايضا بعض النساء من اقاربهن او من الجيران، كانوا يجلسون مع امها التي بدت غارقة في الصدمة، تردد آليا: ماذا سيقول عنا الناس.

في تلك الاثناء كان اخوة عبد الرحيم واصدقائه وجيرانهم، يمشّطون المدينة، لم يتركوا قسما للشرطة او مستشفى او مقهي او شخصا تربطه بعبد الرحيم ولو علاقة بعيدة، عادوا مساء بخفي حنين، في اليوم الثالث نشروا اعلانا في الصحف اليومية بأوصافه علي امل ان يظهر شخص ما يكون قد رآه، ولكن دون جدوي، وبعد اسبوعين من اختفائه سافرت والدته الي منطقة النيل الابيض لتقابل شيخا اشتهر بمقدرته علي كشف مصير المفقودين، فأعطاها رقية تُعلّق في فناء البيت، ونوعا من البخور يطلق في البيت يوميا لحظة الغروب.

داخل السيارة امتدت ايدي قوية عصبت عينيه بقسوة، اظلمت الدنيا من حوله، كان يستمع لضحكاتهم، وتفاصيل وقوفهم الخاطف عند نقاط التفتيش، بعد دقائق قليلة توقفت السيارة، اقتيد وهو معصوب العينين ثم ازيلت العصابة، ودفع داخل غرفة ضيقة قبل ان يؤمر بأن يقف ويديه الي اعلي، كان هناك رجل يمسك سوطا وكلما ارتخت ايدي أحد زملائه انهال عليه الرجل حتى تسيل دمائه.

قضي الليل كله واقفا ويداه مرفوعتان حتى انهار ارضا قبل ان

تنهال عليه السياط.

بعد يومين من التعذيب اقتيد معصوب العينين وسمع وهو يعبر الفناء صوت ازيز الطائرات فعرف انه كان قريبا من المطار، وسمع من علي البعد صوت غناء بعيد ينطلق من جهاز راديو سيارة عابرة فاجتاحه الحنين للحياة والحرية، كان صوت البلابل يغنون اغنية خاتم المني، استعادت ذاكرته صورا بدت له غريبة كانّ وقائعها لم تحدث له قط، وانه كان يستعيدها من ذاكرة أشخاص آخرين ومن أمواج اللحن التي كانت تتدافع من حوله، ثم بدأ يستعيد تدريجيا زمام ذاكرته، وبدأ يسترجع بعض التفاصيل السعيدة النائية، تفوح منها رائحة نوار الليمون ورذاذ رياح ضوئية كانت تغرق ذاكرته.

اُدخل الي غرفة جانبية ورفعت عنه العصابة فوجد نفسه يقف امام شخص كان يجلس الي مكتب صغير، طلب منه الرجل الجلوس وقدم له سيجارة، شعر عبد الرحيم ببعض الأمل، وحاول ان يشرح للرجل بصوت متهدج ان هناك خطأ ما ولابد انهم يقصدون شخصا اخر يحمل نفس اسمه، اوضح الرجل بهدوء دون ان يكترث لكلامه، انه يصدقه لكن المشكلة ان هناك ادلة قوية تثبت ضلوعه في مؤامرة لتفجير بعض المنشآت الوطنية، مضيفا ان اعترافه سيجنبه المزيد من التعذيب ويخفّف عليه حكم المحكمة.

نورا بعد عدة أيام من الحادثة كانت قد بدأت تستعيد وعيها بالأشياء من حولها، كانت تشعر فقط بالخوف والارتباك من نظرات الناس، حتى انها لم تجرؤ طوال أيام على الخروج من البيت، ثم قرّرت اما ان تبحث عن عمل

او تعود لمواصلة دراستها، عادت لتساعد والدتها في شئون البيت، وتساعد سمير ابن اختها الصغير في اداء فروضه المدرسية وعادت تمارس هوايتها في التريكو، تصنع اغطية للمناضد والمقاعد، تستخدم الخيوط الملونة لرسم زهور وحيوانات صغيرة.

يقول لها سمير الصغير: لماذا لا تغنين يا خالة نورا حين تعملين كما كنت تفعلين، فتغني له، تشعر بنفسها تتحول تدريجيا الي جدة، وهي تحكي له في الامسيات ليخلد للنوم، تحكي له حكاية فاطمة السمحة والغول، وحتى لا يثير منظره رعب الصبي، تسبغ على غولها صفات انسانية، يبدو شهما وكريما لا يأكل الموتى بل يساعدهم للعودة الي جحيم الحياة، وفق برنامج تأهيلي، يبدأ بترانيم من الذاكرة تستلهم رصيدا منسيا، يتم غسله من غبار العتمة العالقة لدفعه مجددا لضوء النهار.

عادت بعد اشهر الي الجامعة، اعطتها تلك العودة دفعة اخري لمواصلة الحياة، اكتشفت وجود بعض زملائها، ورغم انها تجنبت في الايام الاولي زيارة الاماكن التي التقيا فيها في الزمن الغابر، لكنها اكتشفت انه كان يستحيل ان تتجنب ذكراه، يسأل عنه بعض الاساتذة والزملاء، يذكرون كم كان انسانا لطيفا وخجولا، يذكرون مشاركاته الشعرية وميله للعزلة، تشعر بهم يتحدثون عن شخص آخر كأنها لم تعرفه مطلقا، حتي وان كان زوجها رسميا حتي تلك اللحظة، تشعر حين تتألم لوقع الذكري علي قلبها مساء انها تتألم نيابة عن شخص آخر، سألها احد اساتذته مرة عنه مشيرا بلطف لعلمه بالعلاقة التي ربطت بينهما ايام الدراسة: الم تعودي تلتقينه؟

.

لم تجد الجرأة لتعترف بأنه زوجها الذي غاب في ليلة زفافهما، قالت بتردد انها سمعت انه استقر في إحدى دول الخليج، ضحك الرجل ضحكة قصيرة مندهشا وقال: لا اصدق انه أصبح يهتم بالمال، كان دائما انسانا حالما، يحب تراب هذا البلد ولا يتنفس الا من هوائه كما كان يقول، وصمت برهة قبل ان يقول بحذر: معه حق علي كل حال، تغيّر حتى الهواء!

سمعت لدي عودتها الي البيت ان عمه مات قبل يومين، شعرت بآخر خيط ربط بينهما ينقطع، في المساء تحكي لسمير قصة فاطمة السمحة والغول، يصبح غولها أليفا حتى ان سمير الصغير نفسه يلاحظ ان الغول قد تحول الي قط سعيد، حتى اظافره نظفتها فلم يعد بمقدوره ان يؤذي احدا، وفي النهاية ألبسته جلبابا وتركته ينطلق ليلعب مع الأطفال في الشوارع، ويساعد المسنين على العبور في مناطق الزحام.

بدا اشبه بمعتوه حتى ان سمير شعر بالحزن لمأساته وتمني ان يراه مرة اخري قويا يرّوع الناس بدلا من ان يطارده الصبية في الشوارع.

تنشغل بالرسالة التي تعدها في علم الانثروبولوجي، عن التحولات التي شهدتها المجتمعات البدوية في النصف الثاني من القرن العشرين، كانت علي وشك السفر لتكمل بحثها ميدانيا في مناطق القبائل الرعوية في غرب الوطن، حين علمت بأنها حصلت علي حكم من المحكمة بالطلاق بسبب اكتمال فترة الغياب القانونية لزوجها، لم تشعر بالتحرر كما توقعت،

وبانهيار اخر الحواجز امام سطوة نسيان شعرت بوقع خطاه في ذاكرتها، بدلا من ذلك شعرت بالحزن وبانها وحيدة في هذا العالم رغم ان البيت من حولها، اكتسي نفس ملامح الحزن الاولي ايام الزفاف الذي لم يكتمل، جاءت والدته قبل يومين وترجت والدتها ان ينتظروا قليلا قبل رفع دعوي الطلاق الي المحكمة، قالت ان الشيخ اكد لها ان ابنها موجود لم يمت ولم يسافر وأنه سيظهر قريبا .

تشاجرت والدتها مع والدته، كانت تجلس هي في غرفتها تستمع الي صراخ امها وعويل امه، قبل ان تغادر الاخيرة يتبعها صوت نواحها.

تشعر في المساء انها حبست الحزن في قلبها بدلا من ان تقصي صورته عن ذاكرتها.

رأته اثناء نومها يجلس محزونا في حديقة ورد مهجورة تعصف بها الرياح، كان يرتعش مثل طائر مبلول حين مد يده لها بوردة حمراء، صرخت حين أمسكت بالوردة في يدها لتجد الدم يقطر منها. وفجأة رأت سمير الصغير وقد كبر فجأة يجري هلعا من الغول الذي كان يتبعه، توقف الغول حين رآها، وقد استعاد سطوته، انتزع الوردة من يدها ووقف بعيدا عنهما في مركز العاصفة يتشمم بأنفه رائحة الدم في الوردة الحمراء.

الحكومة هي سبب طلاقي!

أيقظت أمونة رجل الشرطة النائم في المكتب الصغير الذي يبدو بطلاء جدرانه المتقشر والخيوط الطويلة القذرة النازلة من السقف الآيل للسقوط، وكأنه سيتهدم في أية لحظة على جسد الشرطي الغارق في عرقه وشخيره.

استيقظ الشرطي مذعورا وتفرّق جيش الذباب النائم فوقه، مد يده آليا ليسحب قميص البدلة العسكرية المعلق علي مسمار في الجدار ويرتديه على مهل ويمسح التراب من نظارته بكم قميصه، قبل ان يضعها فوق وجهه، ليتفاجأ بمشهد امرأة تلبس عباءة سوداء وتمد له بورقة ترفعها أسفل وجهها الغاضب. قالت له: هل ينام رجال الشرطة اثناء اداء اعمالهم؟ أشار بيده الي علبة دواء كلوروكوين امامه وعلبة دواء البندول وقال: انها الملاريا اللعينة.

قالت مندهشة دون ان يخفف ذلك من صرامة وجهها: وهل تصيب

الملاريا ايضا رجال الشرطة؟

مد يده ليتسلّم الورقة ويقرأ آليا أول سطر فيها، ثم يبادرها بعد ان استعاد شيئا من اعتداده بنفسه وسلطته التي قلّلت حمي الملاريا والنوم في هذا القيظ وسط الذباب ورائحة غائط الاطفال في الفناء المجاور من هيبتها.

قال لها هل جننت يا امرأة؟ تريدين تقديم شكوى ضد الحكومة لأن زوجك طلّقك؟ وخفف من حدة صوته حين لاحظ انها كانت تنتظره بصبر نافذ، التقط أنفاسه قليلا قبل أن يواصل شرح وجهة نظره: وماذا تريدين من الحكومة ان تفعل لك ان كان عندك مشاكل مع زوجك، وابتسم حين تذكر عبارة سمعها كثيرا في جهاز الراديو: ربما تريدين ان تضع الحكومة قوات سلام بينك وبين زوجك! هل نحضر قوات الجنجويد الى بيتك؟ إنهم مشغولون في الحرب، الحكومة ترسلهم لمحاربة التمرد، ولأنّ الحياة لم تعد تطاق بسبب الفقر، يحمل الجميع السلاح، لذلك ربما لن يكون لديهم وقت قبل عدة سنوات! سأرسل طلبا باسمك ان كان بوسعك الانتظار! ثم صمت قليلا قبل أن يلاحظ:

لو أرادت الحكومة التوسط لحل مشاكل الازواج التي ازدادت بسبب الفقر، فستصبح البلد كلها ثكنة لقوات الجنجويد!

لم تتنازل المرأة عن صرامة وجهها، ردّت بحزم: الحكومة هي سبب طلاقي! ... أقرأ بقية العريضة أولا.

كانت تلك نهاية ثلاثة أعوام من الضياع بدأت في اليوم الذي تقدم فيه

عبد النعيم المزارع القصير القامة، الطيب الوجه ليصحبها من البيت الذي عاشت فيه كل أعوام عمرها مع والدتها وشقيقها. حياتها قبل ذلك كانت تبدو امتدادا لبحر الرمال الذي يقع بيتهم الصغير وسطه محاطا بأشجار المسكيت التي لم تفلح كثيرا في صد بحر الرمال الزاحفة، وأحيانا كانت تشرق عليهم الشمس وهم نصف مدفونين في الرمال. لقرابة الثلاثة عقود كان برنامجها واحدا، تستيقظ صباحا لتحلب الماعز وتعد الشاي لأمها وشقيقها ثم تخرج لتجمع بعض جريد النخيل لتعد طعام الافطار ثم تنطلق مع ثروتهم القليلة من الماعز والضأن الي بقايا حقول الذرة والقمح.

ثمة احتمال واحد تضاءلت فرصه بمرور السنوات للخروج من رتابة حياتها. ان يظهر شخص ما طالبا الزواج منها. ما ان ينتهي موسم الشتاء ويجمع المزارعون المحصول ويبيعونه للتجار، حتى ينتعش سوق الزواج وتنطلق الزغاريد تمزق رتابة خمول الحياة في موسم الصيف الحار، حيث لا تبق من وسائل للتسلية سوي إنجاب الاطفال او الموت. اما ان تقام الافراح او يتقدم شخص ما يطلق عليه اسم (كبودار) يكون في العادة صبيا يركب حمارا يجوب به القري ليعلن موت شخص ما، فيندفع الناس لحضور مراسيم التشييع والبقاء بضع ايام في المسيد، الذي تقام فيه مراسيم العزاء، ويكون هناك في العادة اكل جيد وتبغ وفرصة لسماع الاخبار.

كل بداية صيف كانت أمونة ترخي طوال اليوم أذنيها استعدادا لسماع صوت خطوات ذلك القادم، فلا تسمع سوي صوت الريح العابرة بين كثبان الرمال الغاصة بشجيرات نبات الحلفاء. أسلمت نفسها لكل

أنواع البخور والادوية التي تحضرها أمها من شيخ علي الحزين لإزالة السحر الغامض الذي يمنع زواجها، دون جدوى، وعاما تلو عام كانت تقدم تنازلات جوهرية في مواصفات ذلك القادم، نزعت عنه بمرور السنوات صفة الفارس الذي يأتي على حصان أبيض. واكتفت اقتصادا في الاحلام بمؤهلات متواضعة له فبدا دميما ومعدما يكاد لا يقوي حتى على المشي أو الاعتماد على نفسه.

يغرّد عصفور ابو البشير فوق شجرة المسكيت معلنا قرب ظهور شخص ما، فتقول نورا الرمالية التي تمسح الرمال الصفراء امامها قبل ان تلقي ودعاتها: هناك (رجل يقترب). ثم تصف من هيئة قطع الودع المنظر الذي تراه: منظر قطع الودع المتناثر في نصف دائرة، هو مشهد الرجال الذين يحضرون ابرام عقد الزواج. العروس في الداخل مثقلة بالحلي الذهبية. أمونة كانت تستمع لها كل مرة بحزن، تعرف ان نورا الرمالية لم تكن تكذب، لكنها لم تكن تقرأ المستقبل، بل كانت تقرأ أفكارها. كل مرة مع مقدم الصيف وظهور نورا الرمالية كانت امونة تجري اختبارا صغيرا لتتأكد من صدق فرضيتها. تضع صورة فارس أحلامها في واجهة الذاكرة لتكمل نورا الرمالية وصف ادق تفاصيل وجهه على قطع الودع.

حتى الصيف الذي وصفت فيه نورا الرمالية شخصا آخر. كانت هيئة فارس أحلام أمونة شخصا متعجلا غامض التفاصيل مشتبكا في مشادة دائمة مع كل الاشياء من حوله، حتى أنه حين عمل سائقا لفترة من الزمان طُرد من وظيفته بسبب ادمانه للشجار مع سائقي عربات التاكسي، وعربات

النقل والعربات الخاصة والدراجات بل أنه كان يتشاجر حتى مع اشارات المرور التي كان على ثقة من انها كانت تتحول للضوء الاحمر فقط لأن دوره جاء ليعبر! طويل القامة، لم يشرب الخمر ولا حتى من اجل التسلية. لكن نورا رأته في صورة مغايرة: قصير القامة، خطواته قصيرة، حقق مع العالم من حوله تصالحا دائما ليس فقط بسبب شخصيته المحبة للعزلة، ولكن لأنه لم يكن يرغب في رؤية شيء أبعد من أحلامه الليلية.

لاحظت نورا: سيأتي بعد ان تقطعت به السبل. لم تهتم أمونة للملاحظة المهينة لأحلامها، حاولت اخفاء آثار شعورها المبهم بالذنب كلما تحدث شخص ما عن موضوع زواجها. وذهبت لإحضار الحطب لتعد القهوة لنورا. حين فتحت الباب وجدت عبد النعيم واقفا بقامته القصيرة وعيونه الحمراء من اثار الخمر. كان يبدو مترددا لم يطرق الباب رغم وقوفه لبعض الوقت هناك ويبدو انه كان على وشك العودة من حيث أتي لو لم تفتح أمونة الباب فجأة. سلّم عليها بارتباك وسأل ان كان شقيقها الطيب موجودا، اشارت له ليدخل وذهبت تنادي علي الطيب الذي كان مشغولا بعمل زريبة جديدة للبهائم شرق البيت. قبل أن تستأنف طريقها لإحضار الحطب. عادت بعد قليل تحمل حزمة من الحطب وضعتها أرضا في المطبخ وشرعت في اعداد القهوة.

قال شقيقها الطيب الذي جاء ليحمل القهوة للضيف: يريد عبد النعيم الزواج منك، هل توافقين على ذلك؟

أطرقت أمونة، ولم ترد.

قال الطيب: ما دمت لم تقولي شيئا فأنت موافقة.

عاد بعد قليل ليعلن لها:

سيكون عقد الزواج يوم الخميس.

لم تقل أمونه شيئا، لكنها شعرت بخوف غامض من الحياة الجديدة التي ستبدأ. وان هذا الزواج الذي سيحميها فقط من الشعور الغامض بالذنب تجاه الاخرين سيسلبها حريتها. همست لها امها وهي تودعها لحظة الخروج: والدته امرأة يصعب إرضائها، يجب أن تتحلي بالصبر في التعامل معها. خرجت يحمل زوجها متاعها القليل يتبعهم شقيقها الذي حمل بقية متاعها وماعز اللبن.

مضت الايام الاولي في هدوء رغم ان أمه بادرتها منذ اللحظة الاولي بعداء صامت دون هوادة. طوال اليوم كانت أمونة تعمل في البيت او رعي البهائم. تذهب للغابة القريبة لإحضار الحطب وتعد الطعام وتغسل ملابس زوجها وملابس والدته وتكنس الفناء الواسع يوميا. وتواجه كراهية أم زوجها بصبر. كانت تكتشف كل يوم حين تعود من الرعي ان العجوز خرّبت أحواض زهور نبات صباح الخير التي زرعتها في الفناء، ورغم ذلك لا تجرؤ أمونه على سؤالها، وسمعتها يوما تقول له: يبدو أنك تزوجت من عاقر، لقد نصحتك بالزواج من فتاة صغيرة، لكنك لا تقدم على أية خطوة مهمة الا وأنت فاقد للوعي كعادتك!

في ذلك اليوم تحديدا جاء ليلا سكرانا، كانت امونة نائمة مساء حين أيقظها بغلظة لتعد له العشاء. لم تجد امونة شيئا تعده له فأعدت له بعض الخبز والحليب. حين احضرت له الاكل كان نائما، ايقظته فهب واقفا ثم سقط ارضا قبل ان ينهض بعد قليل ويشمر يديه محاولا ان يأكل، اكتشف بسرعة ان العشاء باللبن، دلق الاكل ارضا واستجمع قوته ليقترب من أمونة ويصفعها.

ضربها حتى تعب وسقط ارضا فساعدته ليصل الي فراشه. في اليوم التالي كان لا يزال سكرانا فواصل ضربها، بدت والدته وكأن ما يحدث أمامها لا يعنيها. كانت جالسة في الفناء في ظلال شجرة النيم على فراش صغير وسط ازيار الماء، وبدت بثوبها الاحمر ووجهها الذي غطته التجاعيد، مثل حيوان بحري منقرض خلّفه طوفان أغرق العالم..

جاء الطيب في المساء بعد ان سمع ان شقيقته تتعرض للضرب من زوجها، جاء يسحب عربة كارو بحماره وامام انظار الزوج وأمه ساعد اخته لتحمل متاعها القليل لتذهب معه. كان عبد النعيم قد واصل الشراب طوال النهار ولحظة خروج زوجته كان جالسا فوق الجدار يغني بصوت جاف مضطرب اغنية وطنية يرددها جهاز الراديو كثيرا، تدعو الناس للعمل وترك الخمول وشراب الخمر، وفي عينيه نظرات من لا يهتم كثيرا بأية كارثة من حوله.

عادت أمونة الي البيت. استأنفت حياتها من لحظة توقفها، لم تسألها

امها عما حدث ولم يقل شقيقها شيئا. بعد ثلاثة ايام جاء عبد النعيم. كان قد استعاد هدوءه وزال احمرار عينيه، جاء مصطحبا شيخ علي رئيس اللجنة الشعبية. قال شيخ علي للطيب: الرجل أخطأ وقد حضر ليعتذر لكم، وقد وعدني بالتوقف عن شراب الخمر، لم يعلّق الطيب، احضر لهما القهوة ثم عاد الي اخته وقال: يريد عبد النعيم ان ترجعي معه الي البيت، هل توافقين؟

فكّرت أمونة قليلا ووافقت بإشارة من رأسها.

لاحظت أن كراهية ام زوجها ازدادت في مقابل هدوء زوجها. مرة قذفت بصحن الاكل الي الارض لأنّها اضافت له كمية قليلة من الملح، ورغم انها لم تكن تتحرك من مكانها في الفناء تحت شجرة النيم طوال اليوم لكن امونة كانت تشعر بها موجودة بريح كراهيتها في كل مكان في البيت. عرفت أنه لا خلاص من العجوز سوى بالموت. وجدت الحل السريع: صبغة الشعر، قررت ان تضع للعجوز قليلا من الصبغة في عصيدة الحلبة التي تحب العجوز شرابها مع اللبن والسمن البلدي صباحا.

قالت لزوجها الذي اعتدل مزاجه قليلا بعد ان توقف مؤقتا عن الشراب: اريد الذهاب الي السوق لشراء بعض الاشياء، اعطاها بعض النقود، وطلب منها الا تنسى ارتداء نقاب يغطي جسمها كله عند ذهابها للسوق، حتى لا تتعرض لمضايقات رجال الشرطة الشعبية الذين يراقبون ملابس النساء.

اشترت امونة من تاجر متجول صبغة للشعر، واشترت علبة حناء واشترت قليلا من العطور الهندية الغالية التي تباع بالوزن. واشترت لنفسها ولوالدة زوجها أحذية خفيفة تصلح لحرارة الجو رغم تحذيرات زوجها بعدم استخدام الأحذية الخفيفة بسبب وجود عقارب في الفناء.

بعد شراء كل مستلزماتها جاءت امونة لتنتظر الحافلة التي تنطلق بعد انتهاء السوق، جلست وسط مجموعة من النسوة الجالسات ايضا في انتظار حافلة المواصلات، ولأنها كانت ترتدي النقاب فإن اي من النسوة لم تتعرف عليها ولم يتحدث معها أحد. بعد قليل لاحظت حركة غريبة من حولها، جاء أحد رجال الشرطة الشعبية وبقي يحدق فيها. وسأل النسوة ان كن يعرفنها فاجبن بالنفي، فقال الرجل بصوت جذب كل الفضوليين في السوق: شكلها يبدو مثل رجل، يبدو انه رجل متنكر يريد ان يجلس وسط النساء!

طلب منها الشرطي ان تذهب معهم الي نقطة الشرطة للكشف عليها، تجمع الناس وسارت مظاهرة صغيرة من خلفها الي نقطة الشرطة، أُدخلت الي غرفة صغيرة داخل النقطة المتهدمة وتولت امرأة رفع الثوب عن جسدها. دفعت المرأة يدها في صدر أمونة فعثرت على بقايا ثدي جاف، صرخت بهلع: انها امرأة! خرجت أمونة في حالة فقدان وعي لم تلتفت ولا حتى للشرطي الذي ناداها لتحمل النقاب الذي تركته في مركز الشرطة، ولا لجمهرة الناس في الخارج.

لم تنتبه حتى الي انها تركت حاجياتها في مكان ما وتركت معها صبغة الشعر التي كانت تنوي استخدامها للتخلص من العجوز. مضت بخطوات عسكرية دون ان تكترث حتى لفلول الناس الهاربة من امامها إثر هجوم رجال الجيش علي السوق، بحثا عن شبان لإرسالهم الي الحرب، ولا حزن الارامل الجالسات على الطرقات في انتظار شخص ما أضعن تفاصيل وجهه في عتمة الذاكرة.

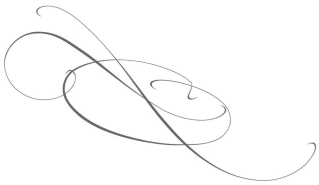

البيت كله مصاب بجنون البقر!

كان عبد النور يجلس في مقهى في سوق الاربعاء يشرب كوبا من القهوة، ويرتاح قليلا من عناء التجوال طوال النهار بحثا عن أية عمل، مرت عدة أيام وهو يبحث عن عمل جديد، إن لم يجد عملا حتى نهاية الصيف سيضطر ليعود للزراعة في موسم الشتاء، لم يكن يحب زراعة الموسم الشتوي، دائما هناك سبب لفشل الموسم، يأتي الحر مبكرا فتصيب العسلة محصول الفول والشمار، أو يتأخر البرد أو لا يأتي أحيانا، وإذا كان الموسم خاليا من الاوبئة وكان الجو باردا طوال الموسم، تنهار الاسعار مباشرة بعد الحصاد. يقال ان السبب هو السماسرة من أهل البنوك والحكومة، حين تنهار الاسعار يشترون المحصول بأسعار بخسة لجني أرباح كبيرة حين ترتفع أسعار المحصول بعد أشهر قليلة.

كان عبد النور قد عمل في عدد من مزارع الموالح لحوالي ثلاثة أشهر،

قام خلالها مع زملائه بنقل زبل البهائم وتسميد أشجار الليمون والبرتقال. استطاع تسديد جزء صغير من ديونه وارسال بعض المال الى زوجته، حاول ممارسة تقشف البهجة حتى لا يغرق في الديون، كان يذهب لشراب الخمر مرة واحدة فقط في الاسبوع، بعكس ما كان يفعله قبل سنوات حين كان يذهب للعمل يوما واحدا في الاسبوع ويقضي بقية الاسبوع في معاقرة البهجة.

يحضر دائما الى سوق الاربعاء ليلتقي بعض الناس الذين يحضرون من قريتهم على ضفة النهر الاخرى، يقوم في العادة بإرسال بعض الاشياء الصغيرة وبعض المال لزوجته واطفاله.

سلّمه أحدهم رسالة من زوجته، اختار ركن القهوة البعيد وجلس يقرأ الرسالة، زوجته تكتب بخط جميل، كانت تعمل معلمة في مدرسة القرية لكنها اضطرت لترك العمل بعد ولادة طفلهما الثاني، كان الوقت لا يزال مبكرا ولم يزدحم السوق بعد: نحن بخير لكن الطفل الصغير مريض ووالدك اصيب ايضا بالحمى، البقرة ايضا مريضة، حين ذهب الزين لحلبها امس قامت بنطحه وطاردته حتى هرب من الزريبة، أحضرنا ابراهيم البصير فقرّر انها مصابة بجنون البقر، واقترح ان نقوم بربطها ونحضر أحد الشيوخ لعلاجها من سحر العين! لحسن الحظ لم تصب الماعز الوحيدة التي تبقت لنا بالجنون، حصلنا على بعض اللبن لعشاء والدك وعشاء الصبيين.

جاء المساعد الطبي واعطى ساتي حبوبا طعمها مر مثل الحنظل، قال

انها أفضل دواء لعلاج الملاريا، وطلب مالا مقابل أقراص الحنظل تلك، اعطيته العشرة جنيهات التي تبقت لنا، وكنت اتوقع ان يعيد لي المبلغ المتبقي، توقعت ان تكون حبوب الحنظل رخيصة، الحنظل متوفر في كل مكان وينمو لوحده ولا يحتاج لتلقيح أو سقي! لكن الرجل لم ينظر حتى للعشرة جنيهات واكتفى بوضعها في جيبه العميق! الذي يبدو أنه لا يرتوي أبدا! ربما لأنّ العملة الوطنية لم تعد تساوي قيمة الورق الذي تطبع عليه كما يقولون في الأخبار! رأس ضخم وبطن كبيرة، لا ينقصه سوى ذقن صغيرة، ليصبح لصا نافذا، يسرقك ويضربك إن قمت بالاحتجاج! مشكلته أنه جاء حديثا بعد وفاة الطبيب السابق مصطفى، الذي كان شهيرا بلقب الحكيم وكان يستحقه، مرض الحكيم لفترة طويلة ثم توفي، شعر الناس جميعا بالحزن والصدمة ليس فقط لأنه كان رجلا فاضلا يمثل أخلاق الزمن القديم، يعطف على المرضى ويدفع ثمن الدواء من جيبه للمرضى الذين لا يستطيعون دفع قيمة الدواء، قبل حكم الكيزان كان الدواء مجانا، والأطفال يذهبون للمدارس ولا يطردهم أحد، بالعكس حين توقف أخي مبارك عن الذهاب للمدرسة حضر مدير المدرسة بنفسه وأعاده للمدرسة! بعد وفاة الحكيم مصطفى شعر اهل قريتنا بالخوف، ان كان حتى الطبيب يمرض ويموت بهذه الطريقة، مثلنا، فماذا سيحدث لنا نحن الناس المساكين!

والدك فحصه ابراهيم البصير بعد ان فرغ من فحص البقرة، ولأنّ والدك كان لا يرد على اسئلة ابراهيم البصير، ويكتفي بالتحدث مع نفسه فقد قرّر ابراهيم البصير ان والدك ايضا اصيب بجنون البقر! سقاه قليلا من

مغلي التمر الهندي لكن والدك تقيأ الدواء واستمر في حديثه مع اناس غير موجودين وكان يجيب حتى على الاسئلة التي لا نطرحها عليه! واعترف بفرح لا يخلو من شعور بالفخر، ان والدتك كانت تضربه حين يتأخر مساء ويحضر الى البيت مخمورا! كان يشكر كل الاشياء القديمة، يقول إنّ خمر هذه الايام مثله مثل اللبن! ولأن الناس أصبحوا ضعفاء فإن مقدارا قليلا من هذه الخمر المغشوشة كفيل بجعل أقوى شاب من شباب هذه الايام يترنح طوال اليوم، ولا يستطيع التعرف الى بيته، رغم أنه يمر من أمامه! ثم يقضي بقية الليل نائما في الشارع أو الحقل! في زماننا السعيد كان الخمر يفقدك حتى الوعي بالعالم من حولك، إذا أطلقوا نحوك (حسب قوله) دانة مدفع، ستقول من الذي قذفني بهذا الحجر الصغير! تنفض ثيابك وتمضي في طريقك كأن شيئا لم يحدث، حين تواجه مصاعب أو تضربك إمراه ما وأنت مخمور بذلك الخمر الجيد، لن يكون ذلك انتقاصا من شخصيتك، بقدر ما هو إثبات لقوة جسدك، ولجودة الخمر التي أنفقت فيها ثروتك!

لم أكن أنتبه أنني ضُربت الا في اليوم التالي، حين استيقظ من النوم وأستعيد وعيا مشوشا بالأشياء من حولي، فألاحظ تمزّق جلبابي، والدماء المتناثرة عليه! يصمت قليلا كأنه يعيد الاستمتاع بتلك البهجة الغابرة، ثم يقول بمحبة: ليس هناك أسوأ من إمراه قوية الجسم! يبدو انّ والدك في شبابه كان ضعيف البنية، بينما كانت والدتك قوية وطويلة حتى انّ الرجال في القرية كانوا يخافون منها ولم يجرؤ أحد على التقدم طالبا الزواج منها، ذات مرة تشاجرت مع حسن الاعرج الذي يبدو انه كان يريد التودد اليها

معتقدا ان الشجار معها سيكون أقرب طريق الى قلبها، لكن المشاجرة انتهت بفقدانه لعينه اليسرى إثر صفعة قوية على وجهه! كان مقدرا له ان يقضي بقية عمره برجل واحدة وعين واحدة! لقد فقد بسبب الحب حتى وجهه!

كان والدك أكثر حظا احتفظ بجميع أعضائه حتى بعد وفاة أمك، لكنه اعترف بأنه كان يتعرض للضرب يوميا، يقول انه كان معتادا على الضرب، كان والده يضربه وكان الناس يعتقدون ان من حق اي إنسان ان يربّي الطفل حتى لو كان شخصا غريبا مارا بالقرية، لذلك تعرض للضرب من الكثيرين، حتى حين كان يقوم بزيارة جده كان يتعرض للضرب لأتفه الاسباب، ارسله والده الى الخلوة حين كان صغيرا، ولأنه لم يستطيع حفظ سورة الفاتحة فقد كان يتعرض للضرب يوميا بالعصي، حتى اضطر للهرب من الخلوة قبل ان يتمكن من حفظ اية شيء، حكى لنا أنه كان في شبابه يهتم بأناقته، خاصة في فترة الصيف بعد بيع المحصول الزراعي، كان يعمل أحيانا كعامل بناء حتى يتمكن من توفير بعض المال للبهجة وللملابس، ولأنه كان دائما يرتدي ملابس نظيفة وجديدة فقد كان الناس دائما يدفعونه لإمامة الصلاة. المشكلة أنه لم يكن يحفظ شيئا، كان يضطر للموافقة حين تكون الصلاة سرا لكن في الصلاة الجهرية كان يصر على الاعتذار بدعوى انه مريض يعاني من ضعف في صوته، وأنه مدين لأحد البنوك بمبلغ كبير ولا تجوز إمامة المدين للصلاة، كما أنه لا يشعر بالاطمئنان ليركز في صلاته بسبب الخوف من مداهمة شرطة البنك له في أية لحظة، ولا يريد أن يبدأ الصلاة ثم يولي الأدبار فيضطر المصلون من خلفه لانتظاره طويلا، حتى

يشعر رجال الشرطة باليأس من العثور عليه وسط الأحراش التي تغص بالأفاعي السامة والكلاب الضالة ويرحلون!

كنت أعتقد ان جنون البقر يصيب فقط البقر، لكن اتضح انه يصيب ايضا بعض المسنين الطيبين الذين تصبح ذكريات الماضي السعيد زادهم اليومي، يحاولون عن طريق إستعادتها، منع أعينهم من رؤية بؤس واقع الحياة الآن! ابراهيم البصير أحضر لوالدك ماء مرقيا، شرب والدك الماء المرقي واستمر في الحديث مع الاشياء من حوله بصورة أكبر، والاعتراف بكل أخطائه القديمة، لم أكن اعرف أن والدك كان جنديا في الجيش وانه شارك في الحرب العالمية الثانية، مع وحدة من الجيش في شمال أفريقيا. اعترف لي انه سرق زجاجة خمر جيدة من القائد فوضع في الحبس، وحين عاد من الحرب قام بقيادة تمرد في وحدته فحوكم وطرد من الخدمة، اعترف لي انه احترف السرقة لفترة بعد طرده من الجيش! ثم عاد الى القرية وأصبح مزارعا.

النقود التي دفعناها لعلاج ساتي كنت أريد دفعها للزين، طردوه الاسبوع الماضي من المدرسة لأنه لم يدفع رسوم الكتب! مع أنه لا توجد كتب، يوزّع عليهم المدرس بعض الكتب الممزقة ويجمعها في نهاية الدرس. قال له المدرس ما دام والدك فقيرا لماذا لا تترك المدرسة لتعمل وتساعده! المدرس الذي كان يدفع من جيبه ليتعلم الناس أصبح هو الذي يطرد الأطفال من المدرسة ويقول لهم ما دمتم فقراء ما سبب اصراركم على التعلُم؟ يقول ليهم: الكحل لا ينفع في العين العوراء!

لماذا غبت طويلا هذه المرة! الزين حزين لأنه لا يستطيع العودة للمدرسة ووالدك اصيب بجنون البقر، لابد أنه مرض معد لأن البقرة مرضت أيضا، أخشى ان نمرض جميعا وحين تعود تجد البيت كله مصاب بجنون البقر.

ساتي كان قد بدأ يتحدث قبل ان تصيبه الحمى، يبدو أنه سيصبح مثل جده، فهو لا يكف طوال اليوم عن التحدث مع كل شيء بلغة لا يفهمها حتى هو نفسه.

حمار والدك العجوز مات فجأة، لا أعتقد انه اصيب بجنون البقر، فقد كان هادئا حتى لحظته الأخيرة، كان يبدو سليم العقل رغم هزاله وجروح ظهره. كنا نسمع صوته طوال الليل ينفخ بأنفه كعادته، وفي الصباح وجدناه ميتا، كان وجوده مهما جدا لنا، يستخدمه الزين للذهاب للمدرسة، ولإحضار الحشائش للبقرة والماعز، لكنهم طردوه من المدرسة على كل حال.

نحن في انتظارك اذا لم تستطع الحضور ارسل لنا مالا، لماذا لا تحضر وتجرب حظك مع الزراعة هذا العام؟ أو تذهب الى مناطق تعدين الذهب، يقال أن أحد اهل القرية عثر على قطعة ذهب كبيرة واصبح ثريا، أعاد بناء البيت ويفكر في الزواج مرة اخرى! هكذا الرجال هنا، ما أن يعثر أحدهم على المال حتى يفكر أول شيء في الزواج، ينسى ان أم أطفاله هي التي صبرت معه على الفقر ولولا تدبيرها ومساعداتها لما استطاع ان يحقق شيئا. هل ستفكر انت ايضا في الزواج ان عثرت على قطعة ذهب كبيرة؟ أعتقد إنك مثل والدك تحب الخمر أكثر من زواج النساء؟ أم ان والدك لم يتزوج

إمراه اخرى لأنه كان يخشى أن تضربه زوجته؟ إنني ايضا قوية الجسم، حين كنت فتاة صغيرة كنت أذهب لرعي الغنم، وفي المرعى كنت ألتقي مع الكثير من الصبية، كانوا في معظمهم أولادا مؤدبين، لم تكن هناك مشاكل أو مخدرات يستخدمها الاولاد مثلما يحدث الآن، تجرأ أحدهم مرة وحاول ضرب إحدى الفتيات معنا، سحبت حذائي وضربته على رأسه حتى فرّ هاربا ولم يعد الى ذلك المرعى مرة أخرى! يمكنني إذن التصرف في حالات الدفاع عن النفس!

يجلس عبد النور يائسا يشرب القهوة على الحساب الذي تضخم كثيرا دون أمل قريب في سداده. يعبر المارة من أمامه، فيشعر كأنه بات غريبا في هذا العالم، كأن الأرض انشقت ولفظته فقط ليدور مثل ثور في ساقية أبدية تسحب الماء من البحر وتعيده الى البحر.

يشعر فجأة بنشوة غريبة تعيد شحنه بالرغبة في الحياة، يزدحم العالم من أمامه بالناس، زحام الناس والفوضى التي أثارها ظهور بعض الشباب العائدين من مناطق تعدين الذهب، شيء ما جعله فجأة ينسى أحزانه، طلب كوبا آخر من القهوة، شربه ببطء ووضعه على المنضدة أمامه، ثم حمل عصاه ووضع الرسالة في جيبه، وضاع في زحام السوق.

2014

الموت في اليوم العاشر

في اليوم العاشر، انتهت مراسيم الزار، خرجت السارة تتقدم موكبا صغيرا الي نهر النيل، تقضي طقوس اليوم الاخير أن تغسل آخر أدران جسدها في النهر المقدس، لتبدأ مواسم البشارة والفرح. تقدمت بخطوات نشطة وجسد خفيف بعد أن طرحت عنها أثقال سنوات من الانتظار والامنيات الزائفة، خرجت بوجه ناصع ومشاعر جديدة وبدا كأن هواجس أكثر من ثلاثة عقود قد تبخرت مع دخان البخور وغبار الموسيقي الشيطانية التي نظفت ذاكرتها من وقائع قرن من الإحباط، وفتحت بوابة الذاكرة على مدي فسيح من أمنيات جديدة تبدو لحظة خروجها الي العالم وكأن العناية الالهية تسبغ عليها رعايتها وتحصّنها ضد الزمن والنسيان.

خرجت الي ضوء الشمس المحرقة في ثوب ناصع أبيض، ارتعبت قليلا في البداية من فكرة عودتها الي الحياة الجديدة في ثوب أبيض أشبه بالكفن،

لكنها مثلما تعلمت خلال عشرة أيام كيف يتحول الحزن الي أمنية قابلة للتحقيق وتتحول الذكريات الي رماد، تغلبت علي هاجس الموت الطارئ، لقد حققت في خلال عشرة أيام أمنيتين كان يمكن في ظروف عادية الا تتحققا قبل مرور قرن كامل: أن تنسي كل تفاصيل أحزانها وأن تقود مسيرة تمضي دون هدف الي المجهول ،أثناء الطقوس، شربت زجاجة ويسكي كاملة قبل ان تغرق في الرقص، وامتشقت في اليوم الأخير سيفا طويلا كان يخص أحد أسلافها لتتوجه به الي نهر النيل.

قادت السارة الموكب الذي أغرقه صبية المدرسة الذين تبعوا الموكب أثناء عودتهم من المدرسة في جلبة أناشيد ثورية منسية، خلف غطاء من موسيقي مزامير البوص وعلب الطعام الفارغة. نزلت السارة مباشرة وهي تشهر سيفها الي نهر النيل وبدت مع أشعة الشمس الغاربة مثل قائد يستعد لخوض غمار آخر معاركه الخاسرة.

هبت نسمة أطارت خصلات شعرها فاندلقت الخصلات الذهبية فوق الخيوط الواهنة لآخر ومضات الشمس الغاربة، فبدت أشبه بآخر يوم سعيد في حياتها الاولى قبل عشر سنوات، اليوم الذي ستعرّفه لاحقا في متاهة الانتظار بأنه اليوم الذي عقد فيه زواجها علي رجل ميت!

كان ذلك صحيحا.. ففي اللحظة التي أعلن فيها المأذون أن السارة عثمان الفضل، البنت البالغ، قد أصبحت زوجا لابن عمها سعيد وانطلقت الزغاريد تمزق رتابة الحياة في موسم الشتاء، في تلك اللحظة تحديدا كان

سعيد يرقد في المشرحة وقد تجمد الدم في الثقب الذي أحدثته الرصاصة في صدغه الأيمن، في جيبه كانت ترقد آخر المنشورات التي لم يتمكن من توزيعها، وفي محفظته التي سرقها رجل الأمن الذي أطلق عليه النار، كانت ضمن اوراقه ونقوده ترقد صورة فتاة باهتة الملامح مكتوب عليها أن تبقى في الانتظار حتي الموت.

احتاجت لعشرة أيام لتفرغ فيها مرارة عشرة أعوام، كل يوم مقابل عام كامل، تساقطت في حمي غبار الرقص، وفوضي ضربات الطبول تفاصيل الحياة البائسة التي قضتها في انتظار يائس علي أمل أن تصل رسالة تكذّب خبر موته، أو أن تحدث كارثة تهز العالم كله من حولها لتستيقظ من هول الكابوس الذي تعيشه.

تقدمت السارة المسيرة المنهكة بسبب القيظ، وبدت أثناء خروجها على رأس الموكب من غابة أشجار المسكيت وكأنها تقود جيشا من الغبار يتقدم لغزو النهر العجوز النائم في سبات قيلولته.

أيقظت ضجة الطبول وصراخ الصبية النهر فتبعثرت في وجهه موجات قوية تحطمت على جدار الشاطئ قبل أن يستعيد صفاءه وينفض عن وجهه برفق الفراشات النائمة وطيور الرهو والسمّان المهاجرة.

تقدمت السارة المسيرة، وحين وجدت نفسها تواجه منظر نهر النيل الغارق في حمى القيظ، شعرت أنها لم تكن تقود المسيرة، لكن ضربات الطبول وأنغام مزامير البوص البائسة التي يعزفها الصبية هي التي كانت

تقودها، أعادها مشهد النهر عدة أعوام الي الوراء فرأت نفسها تصارع كي تبقى على قيد الحياة، بعد أن باعت تدريجيا كل الاثاث المنزلي الذي اشترته لبيتها، تذكرت عراك الديوك في الاسواق التي كانت تحمل اليها بضاعتها الكاسدة من الحلوى وأعواد قصب السكر وقشور الفواكه المجففة.

رأت أمها المريضة بحمى الملاريا، تنهض من فراشها متغلبة على قهر الشيخوخة والمرض لتساعدها لتخرج من بيات أحزانها الطويل. ترسل النقود القليلة التي اقتصدتها بدلا من شراء دواء للملاريا، ترسلها مع الصبية لشراء حجارة بطارية ليعمل جهاز الراديو القديم في البيت حتى لا يزحف سكون الموت الي المكان. تسحبها من يدها مثل طفلة لتطوفا القرية الغارقة في جحيم القيظ، تغني لها في ضوء القمر نفس الأغنيات التي كانت تغنيها لها في طفولتها، تغرقها في أخبار تنسج الجزء الاكبر منها بنفسها وتجمع خيوط أجزاء اخري من النسوة اللائي ثابرن علي زيارتها أحيانا خاصة في الصيف وفي الأعياد، رغم انها لم تعد تذكر أسماء أكثرهن أو حتي تفاصيل الذكريات السعيدة التي جمعتها بهن.

تحاول عن طريق مشاعرها الجديدة وهي تقود المسيرة شاهرة سيفها أن تواري ذكريات حياتها الاولي في النسيان لكن صفحة النهر التي استعادت هدوءها بدت مثل ذاكرة بديلة لا يتسرب اليها النسيان، مثل مرآة لتفاصيل زمان دفنته من خلفها في قرع الطبول وهياج الرقص والامنيات الجديدة، رأت علي صفحة الماء وجه ذاك الشاب الطيب، الذي يعمل مدرسا في مدرسة القرية، تري بوضوح تفاصيل أول زيارة له: جاء الي البيت ذات

صباح بوجهه الطيب المتعب وملابسه القديمة والمعول الذي كان يحمله في يده لأنه كان قادما للتو من المزرعة، قال ردا علي تساؤل أمها:

لا أستطيع الذهاب الي المدرسة هذه الايام قبل أن أفرغ من زراعة المحصول!

وجدتها أمها سانحة لتتعرف على العالم المنسي خلف باب البيت: وهل لا يسبب ذلك مشكلة مع المدرسة؟

ضحك الشاب الطيب وقال: لا يوجد من يعمل في مهنة مدرس، ما يعطونه من مقابل مادي لا يساوي ثمن الخبز ولا لبضع أيام، ضحك وهو يحكي قصة تذكرها في تلك اللحظة:

ذات مرة كنت ذاهبا الي المدينة، طلب مني رجل مسن أن أتسلم نيابة عنه معاشه الشهري، كان قد أفني عمره كله في مهنة التدريس قبل ان يتقاعد قبل اعوام، بعد أن فرغت من مهمتي في المدينة ذهبت لأتسلم المعاش، حسبت أن مبلغ المعاش ضخم جدا حين طلب مني الموظف المسئول أن أحضر شاهدا يوقع علي استلامي للمبلغ، ترددت قليلا قبل ان أخرج وسألته عن قيمة المعاش، لم استطع تمالك نفسي من الضحك حين ذكر لي المبلغ، بضع جنيهات هي ربع المبلغ الذي دفعته أنا ثمنا لتذكرة الوصول الي المدينة بالحافلة، لو أن الرجل المسن حضر بنفسه وتسلم المبلغ لاحتاج أن يعود الي القرية ماشيا علي قدميه!.

قلت للموظف: لن أحضر شاهدا، اذا لم تسلمني المبلغ سأدفعه للرجل

المسن من جيبي! عندها رضخ الموظف وسلّمني المبلغ.

حين فتحت السارة باب البيت وطالعها الوجه المغطى بتراب أمشير، حسبت في البداية أن الرياح العاتية التي اجتاحت القرية منذ الصباح هي التي دفعت بهذا الرجل الي بيتهم دون هدف. حين أزاحت جسدها من امامه وفتحت الباب الصغير علي مصراعيه تأكدت فكرتها حين اندلق جسده داخلا بفعل الريح دون ان يبدو عليه أنه كان يملك سيطرة علي جسده القادم بفضل ريح أمشير.

جلس مع أمها التي كانت تهذي من الحمي لحظة دخوله ثم استعادت نفسها وشربت قليلا من مغلي التمر الهندي ووضعت السعوط في فمها وبدأت تجاذب المدرس الشاب أطراف الحديث.

كان يتحدث بلهجة مزارع بسيط، يقول الحمد لله أن الرياح هبت، لأنها تكافح مرض (العسلة) الذي يقضي على محصول الفول المصري.

تسأله العجوز وهل زرعت مساحة كبيرة من الفول؟

ضحك المدرس الشاب وقال: إذا كنت تقصدين الارض الصغيرة أمام بيتنا فأنا لم أستطع زراعتها هذا العام بسبب غلاء مدخلات الزراعة، ذهبت الي المشروع الزراعي واشارك مع مزارع آخر في زراعة مزرعة واحدة.

ضحكت العجوز وقالت: أليس هو نفس المشروع الذي كنت تريد نزعه قبل سنوات من صاحبه وتحويله الي شركة تعاونية؟

ضحك المدرس الشاب وقال: تماما، كنا عائدين للتو من دراستنا وكان الزمان يبدو مبشرا، ورأينا في صاحب المشروع اقطاعيا يتحكم في قوت الناس، الان هو أفضل من كل الاخرين لأنه وفي نهاية الموسم الفاشل كل عام لا نخسر نحن شيئا حتي لو خرجنا بقوت يوم واحد، بينما يذهب هو الي السجن وحده!

حين سمعت العجوز التي كانت تهذي من وطأة حمي الملاريا صوت خطوات القادم، عرفت انه آخر أمل لتخرج بنتها من بيات أحزانها، نفضت عن جسدها الحمي وقامت لتستقبله، شرب كوب الشاي بصوت عال تناغم مع صوت الحياة في الشتاء، وحين مدت له العجوز جهاز الراديو القديم الذي توقف منذ أيام قام بإعادة ربط الخيط الذي يحرّك المؤشر فنطق الجهاز مرة اخري. وضع الراديو جانبا ونفض شال الصوف الضخم الممزق الذي يضعه حول رقبته فثارت عاصفة صغيرة داخل البيت من الغبار قبل أن يطلب يد السارة.

بدا الفرح على وجه الأم، لكن لم يبد على السارة انها تشاطر أمها الفرح، خرج الشاب الطيب علي أمل ان يعود مرة أخري. عاد عدة مرات خلال أيام كان يقوم فيها كل مرة بربط خيط جهاز الراديو، وينفض الغبار عن شال الصوف العتيق، أحضر للعجوز في المرة الثانية بضع حبات من دواء الملاريا، وملأ لها كوب الماء لتأخذ الدواء، بعد عدة زيارات بدا كأن السارة لانت قليلا لضغوط أمها وقبلت أن تجلس معه للمرة الاولي بعيدا قليلا عن أمها.

حين وضعت قدمها في الماء شعرت السارة ببرودة خارقة تخترق عظامها، وقفت قليلا أملا في أن تؤدي خطوتها الاولي في الماء الي استعادتها زمام مبادرة الذكريات، لكن صفحة النهر مضت تفتح أمامها مزيدا من الجراح، رأت صورته في المرة الاخيرة التي تراه فيها يوم مأتم أمها: نفس الوجه الطيب وشال الصوف المترب الذي يطوق عنقه وومضة الرجاء التي لازالت تنبض من عيونه.

نظرت الي الجموع الحاشدة من خلفها ومضت تحرسها الأشعة الغاربة والظلام الوليد الذي بدأ يرخي سدوله على النهر، ومن على البعد سمعت آخر دقات الطبول وآخر أنغام مزامير البوص تضيع وراءها في عتمة النهر.

2003

موت مزارع

كان عبد الستار رجلا طيبا مستور الحال، يعيش في بيت صغير يقع في أعلى بقعة في إحدى جزر نهر النيل، كان يفلح قطعة أرض صغيرة ورثها من أسلافه، ورغم إنتاجها القليل الا أنه كان كافيا ليستمر على قيد الحياة مع المساعدات القليلة التي كانت تصله من بعض أقاربه الذين يعملون في دول الخليج.

ورغم أنّ عبد الستار لم يشتهر بالورع، اذ لم يكن يعرف من الفروض الدينية الا ما يكفيه بالكاد لأداء الصلاة، إلا أنه كان يقف أحيانا بعد صلاة الجمعة ليتحدث في بعض المسائل الصغيرة، والتي كانت في طابعها العام أقرب الي الدنيا منها الي الدين، وفي الغالب فإن أحدا لم يكن يعر كلامه أدنى اهتمام، كان الناس يضطرون للجلوس للاستماع له بدافع المجاملة، او الخوف فقد كان يتمتع بجسم ضخم وقبضة حديدية أتاحت له مرة اثناء

استعراض للمهارات قتل ثور بضربة واحدة علي الرأس، وفهم الكثيرون محاولاته لتنصيب نفسه كواعظ متطوع بعد الظهر، بأنها مجرد رغبة من رجل طيب يحاول تذكير الناس بأنه موجود وأن الشيخوخة لن تجبره علي التسليم والانخراط في استعدادات انتظار الموت بنفس الطريقة التقليدية القديمة لمن انتهت مهمته في الحياة..

كان عبد الستار يعيش وحيدا، لا يؤنس وحدته سوي جهاز راديو قديم، كان الراديو الوحيد في العالم الذي لا يحتاج لأي نوع من الطاقة من أجل تشغيله، بل مجرد ركلة قدم قوية تحرّك طاقة منسية في أحشائه فيبدأ علي الفور في ترديد الشعارات الوطنية بصوت مرتجف، وكان يمكن لبرنامج حياته أن يمضي علي الوتيرة نفسها حتي لحظة تشييعه الي مثواه الأخير، لولا الانهيار الاقتصادي الرهيب الذي طال كل مستويات الحياة اليومية، منذ بدء ظهوره مع بداية عقد التسعينات من القرن الماضي، وفجأة وجد عبد الستار نفسه وهو علي وشك ان يبدأ أول ايام الشيخوخة علي حافة الإفلاس، انقطع الايراد القليل الذي كان يصله من أقربائه في الخارج بسبب تدهور أحوالهم، لم تنقطع غلة أرضه ولكن تكلفة الانتاج باتت عالية جدا وأسعار المحاصيل الزراعية لا تكفي للوفاء بالتكلفة المرتفعة للإنتاج، لم تكن هناك مشكلة في إيجاد التمويل اللازم للزراعة فقد فتحت عدة بنوك تجارية أبوابها علي مصراعيها وكانت علي أتم استعداد لإقراض المزارعين أية مبالغ يطلبونها ودون تردد، الا ان عبد الستار أدرك مبكرا ان الطريق نفسه الذي يؤدي الي البنك كان ينتهي في السجن، لأنه وبمجرد أن يتم حصاد

المحصولات الزراعية كانت أسعارها تنهار فجأة وكأن الامر يتم بفعل فاعل، وتقوم البنوك التجارية بتحصيل قروضها بالاستيلاء علي المحاصيل بأسعار زهيدة، ولأنّ ذلك لا يكون في العادة كافيا للوفاء بالقروض يتم جرجرة المزارعين الي السجون، حتي أن الكثيرين كانوا يفهمون عبارة انا ذاهب الي البنك وفق معناها الحقيقي وهو : انا ذاهب الي السجن!

لم يصدق عبد الستار الأناشيد التي كان يرددها جهاز الراديو والتي تحث المزارعين علي زيادة المساحات المزروعة لتحقيق الاكتفاء الذاتي، شاعرا انه لن يحقق اذا ما انجر وراء تلك الشعارات سوي اكتفاء ذاتي من الهموم، وهو لم يكن في حاجة للمزيد منها فقد أصبح يضطر في الفترة الأخيرة لتغيير الطريق الذي يسلكه في وسط القرية ليتجنب المرور من أمام دكان السر ود الحاج، بسبب تراكم ديون حوائجه المنزلية، وطوال أيام استغرقه قلق شديد حتي أنه كان يعبر أمام جيرانه الجالسين فوق كثبان الرمال في ضوء القمر في انتظار حدوث فرج ما، كان يمر بهم دون أن يلقي السلام، أو حتي يكترث للذين كانوا ينادونه بألقاب ساخرة من استغراقه الفلسفي، فكّر في مخرج آخر يضمن له البقاء علي قيد الحياة دون تنازلات جوهرية قد يدفع ثمنها من أوهامه المستقبلية، نظر حواليه فلم يجد شيئا، وانتظر طوال عدة أيام على أمل ان يطرق باب بيته طارق متعجل يسلمه خطابا دسما من أحد اقربائه، ولكن مرت الأيام رتيبة، لا جديد فيها. تمضي ساعات النهار الطويلة ببطء، لم يعد يشعر فيها بطعم الحياة القديم في ساعات الضحى وغناء القمري فوق أشجار النخيل.

ركل جهاز الراديو ركلة اخيرة فانطلقت ثورة الأناشيد التي تؤكد بأنه يعيش في نعيم ارضي يأكل فيه مما يزرع ويلبس مما يصنع، رغم إنه لم يأكل شيئا منذ يومين، ورغم مظاهر الجحيم الراكد من حوله، اغلق جهاز الراديو وتركه يختفي مع ثورة أناشيده خلف انسجة العنكبوت واتخذ قرارا مصيريا مهما: قرّر ركوب الموجة! أهمل حلاقة ذقنه عدة أيام كانت كافية لتنمو لحية صغيرة، قرر أن يتوكأ عليها لتحقيق مآرب اخري، وعن طريق بعض معارفه عرف ان هناك فرصا للتقدم لوظيفة داعية لم يكن أمامها من عقبات سوي دورة تدريب ضمن قوات الدفاع الشعبي ثم دورة تأهيلية بعد ذلك تؤهله لاعتلاء منابر المساجد. اعتبر عبد الستار أن دورة الدفاع الشعبي ستكون مجرد رحلة قصيرة لن تخلو من تسلية ما دامت الحكومة ستتكفل نفقات إبقائه على قيد الحياة طوال تلك الفترة.

ولإضفاء صبغة عملية على توجهاته الحضارية الجديدة، أصبح عبد الستار يقف ليتحدث بعد صلاة الجمعة بلسان جديد، أصبح يحث على الجهاد والتضحية بالنفس، وكان يدعو ببطن مترهل الي عدم مسايرة هوي النفس وقهرها بالصوم، وفي كل مرة كان يختتم حديثه بالقول المأثور: اخشوشنوا فان النعم لا تدوم.

في البداية اعتقد الجميع بأنه كان يمزح، أو يمر بفترة اكتئاب بسبب الفراغ او قلة المال، تجعله يتقمص دورا تبشيريا تقشفيا. ولم تخل تحولاته من مخاطر فقد طرق باب بيته السر ود الحاج مطالبا بديونه، قال له: ما دامت ذقنك قد طالت هكذا فلابد أنه سيكون معك ما يكفي لسداد ما عليك

!، الا ان عبد الستار أكد له انه لم يتغير شيء حتى الآن سوي ظهور تلك الذقن، ووعده بالسداد بمجرد أن تنفرج الاحوال قريبا، بعد الحصول على فوائد ما بعد الذقن!

بعد أيام اختفي عبد الستار وعرف أهل القرية بأنه اختير كداعية وأن الاختيار وقع عليه مع امرأة من نفس القرية وإنهما سافرا لتكملة دورة الدفاع الشعبي، نقل عبد الستار الي معسكر في منطقة القطينة وبسبب سمنته المفرطة فقد واجه عسف المدربين، وكان أحدهم يطعن عصاه كل يوم في بطن عبد الستار المترهلة ويقول له: هذا اللحم الحرام يجب أن يخرج! كان المدرب في كل يوم يكيل له الاتهامات منددا باللحم الذي يكتنزه والذي لم تفلح في زحزحته كل حفلات العقاب اليومي والجوع الاجباري والاكل الرديء.

في النهاية توصل عبد الستار الي قناعة ان المعسكر لم يكن للتدريب ، بل للحقد، وان كل رأسماله الذي تبقي له من الدنيا من صحة الجسم التي يدّخرها لأيام المرض والشقاء، كان معرّضا وبصورة متواصلة لحقد يومي معلن، فور توصله لتلك القناعة المتأخرة غادر المعسكر، كان يؤدي طقوس العقاب المسائي اليومي حيث يقف ويداه مرفوعتان طوال الليل حينما غادر المكان فجأة ودون مقدمات، لم يكترث للصافرة التي انطلقت تدعو المجندين لإيقافه، ولا للمدرب الذي اتخذ وضع استعداد إطلاق النار لإيقافه، غادر المكان دون هوادة ولم يكلف نفسه ولا حتي بالبحث عن باب المعسكر فقد حطم أقرب جدار مواجه وغادر المكان .

في الخارج توقف أمام شارع الاسفلت المقفر علي أمل مرور عربة ما، كان المساء ينذر بعاصفة خريفية فقد كانت السماء ملبدة والبرق يضئ قفر اشجار الطلح والسيال من حوله، لم يكترث عبد الستار للعاصفة الوشيكة، كان مشغولا باسترجاع شريط الاهانات اليومية التي تعرض لها طوال ايام، فجأة توقفت بجانبه سيارة فارهة، فتح الباب الامامي ليصعد للسيارة ففوجئ بمنظر الرجل الجالس الي عجلة القيادة، وجده ملتحيا، كان مظهره ومظهر سيارته يدل على أنه أحد النافذين في حكومة ثورة الأناشيد، أثارت اللحية فيه كل مواجع أحقاده، لم يصعد الي السيارة، صفق الباب بعنف وأصدر للرجل بإشارة حادة من يده أمرا بالانصراف. قضي الليل كله ماشيا حتى لاحت تباشير أول مدينة، ومن حسن حظه فقد كان يحتفظ بمبلغ قليل من المال أتاح له ركوب المواصلات الي الخرطوم التي أمضي فيها بضعة أيام قبل أن يغادرها عائدا الي قريته.

لدي عودته لبيته استأنف فور وصوله تفاصيل حياته السابقة نفسها، نفض الغبار عن جهاز الراديو وركله بحقد، فوجده يردد نفس أناشيد الاكاذيب السابقة فأغلقه بركلة أخري، شعر رغم ضيق الحال بأنه بدأ يستعيد هدوءه السابق وان لم يستطع مكافحة شعور بالخجل بسبب عودته بخفي حنين دون أن يحرز لقب شيخ، وانه سيتعين عليه ان يحتفظ بسلوكه العلماني نفسه بسبب فشله في الحصول على ترخيص لهداية الناس!

الاّ أنه لم يستسلم، فبعد مرور عدة أيام شعر بأنه لا يمكن أن يعلن عودته الفاشلة من رحلة العذاب تلك، فاستهل دورة تدريبية عسكرية دعا

لها تلاميذ المدرسة الأساسية وبعض الصغار الذين سحبهم آباؤهم من المدارس بعد أن عجزوا من سداد رسوم الدراسة الباهظة، أفرغ عبد الستار كل أحقاده في التلاميذ، زاعما أنه ينفذ توجهات الثورة، حلق لهم رؤوسهم بقسوة، بالطريقة نفسها التي كان يحلق له بها، مستخدما أمواسا قديمة أو قطع زجاج، وطوال ايام العطلة أخضعهم لتدريب قاس حتى ضج أولياء أمورهم.

وذات يوم بعد أداء صلاة الجمعة وقف أحد آباء التلاميذ وتساءل ان كانت هناك بالفعل تعليمات حكومية تخول لهذا الرجل حلاقة رؤوس أبنائهم بتلك الطريقة المهينة وتعريضهم لذلك التدريب الشاق. لم يتلق الرجل ردا كان كل من يحمل صفة مسؤول في القرية وهم كثيرون، كان كل واحد منهم يتلفت حواليه بحثا عمن أصدر التكليف الرسمي، وحين بات واضحا أن عبد الستار كان متطوعا لإثارة المشاكل واصل الرجل كلامه قائلا: لقد ذهب عبد الستار من هنا ليتدرب في معسكر للدفاع الشعبي، وسافرت معه من هنا امرأة، وهرب عبد الستار من معسكر الدفاع الشعبي عائدا، بينما لم ترجع المرأة حتى الآن!

شعر عبد الستار برأسه يكاد ينفجر من الغيظ، فقد تم إيقاف دورته التدريبية بقرار من مجلس آباء المدرسة الأساسية، عاد عبد الستار الي البيت محنقا، ركل جهاز الراديو فسمعه يردد الأناشيد الحماسية دون حماسة بسبب ملل التكرار، أشعل عبد الستار سيجارة (قمشة) سحب منها نفسا واحدا واستلقي على عنقريبه جوار جهاز الراديو.. ومات!

أفضل الناس في القرية هم المجانين!

بدأ الشتاء، هبّت رياح الشمال الباردة فاكتسحت أوراق الاشجار المتكومة في الأفنية، فتطايرت في الفضاء مثل الفراشات. كان شيخ النور يجلس في الشمس أمام المسيد، تعود منذ وفاة والده المسن قبل أيام أن يقضي معظم وقته في المسيد، هرع الناس جميعا الي الحواشات فأصبحت القرية خالية وموحشة، جاء بعد قليل سليمان الاعرج وحاج بشير وفارس المجنون.

قال شيخ النور: وانت السنة دي ما ناوي تزرع؟

قال فارس: زراعة شنو السنة الفاتت شلت سلفية من البنك وزرعت، يوم الحصاد جو ناس البنك شالوا المحصول كلو ووكت ما كفاهم ساقوني انا ذاتي معاهم!

وضحك شيخ النور وقال: أخير ليهم كان يسوقوا حمارك يمكن

يجيب أحسن منك في السوق ويتم ليهم قروشهم الناقصة!

وقال الحاج بشير: وداير تعمل شنو يا ولدي داير تمشي العمرة؟

قال فارس: السنة الفاتت مشيت حاولت العمرة قالوا تمشي في الأول تعمل الخدمة الإلزامية في الجيش، مشيت عملت جواز سفر تاني بعمر كبير رجعت لقيتهم تاني رفعوا سن المطلوبين للخدمة الوطنية، لكن السنة دي عندي فكرة جديدة.

قال شيخ النور: أها ناوي علي شنو.

قال فارس: داير أمشي أجاهد في الجنوب!

ضحك شيخ النور واشار الي جركان العرقي الصغير الذي يحمله فارس المجنون في حله وترحاله وقال:

انت جهاد نفسك غلبك ماشي تجاهد الناس التانيين!

قال فارس : دة بزنس، قالو تمشي تقضي كم شهر هناك، طبعا ما تمشي تكابس قدام، تكون في الصفوف الورا ، تجيب الموية للناس البيحاربو، تربط لي زول مجروح يدو، تعمل ليه جبيرة لو اتكسر، بعد كم شهر يدوك شهادة مجاهد، دي لمن ترجع بتفتح ليك الدرب!

سمعوا من على البعد صوت عزف حزين على الصفارة، تسرب الصوت ببطء في خمول الضُحى واختلط برائحة القهوة ودخان النار

التي بدأت النسوة في اعداد خبز القراصة لطعام الفطور عليها. قال العم بشير: دة باين عليه سيد قيلة!

ظهر امامهم بعد قليل سيّد قيلة المتسول الموسمي، يظهر في القرية في مطلع الشتاء ويختفي فجأة ليظهر في نفس الوقت بعد عام، توقف سيد وحياهم من على البعد وطلب حسنة لوجه الله، كان ينادي بصوت جهوري ويتسول من موقف قوة وثقة وكأنه يطالب بحقوق له عندهم، وبدا كأنهم هم الشحاذين وليس هو، وكان يطالب في الغالب بمبالغ ضخمة ليستثمر الصدمة في الحصول علي مبالغ معقولة،

أصدر أمره : شيخ النور داير لي مية ألف !.

ضحك شيخ النور وقال: لو بعت الحلة دي كلها بناسها وبهائمها ما تجيب ليك نص المبلغ دة!

أصدر سيد قيلة أمره البديل: طيب أديني بطانية أبوك تبقي ليه صدقة جارية.

ضحك شيخ النور وقال: يا أخوي ابوي لو كان عنده بطانية ما كان مات، أبوي مات بالبرد!

قال مخاطبا شيخ النور وكأن فارس المجنون غير موجود: فارس دة ظروفه كيف؟ داير لي منو عشرة ألف!

قال شيخ النور: فارس دة راسماله الجركان دة، لو داير عرقي

ممكن تتملي فل، لكن كاش والله اعلم ما عنده!

ضحك فارس وقال: نتصدق بالعرقي كمان ولا شنو؟

واصل سيد قيلة مخاطبة شيخ النور: وعمك بشير دة كيف، ولدو ما قعد يرسل ليه من السعودية ما يشوف لي مية ألف؟

قال شيخ النور: نقيت في ولده من السنة الفاتت قالو هسع طردوه، لم في الكفيل دقاه دق الرخصة، عملو ليه خروج بدون عودة! حتى الحج ذاته ما يقدر يمشي تاني!

وسأل سيد قيلة: وهسع شغال وين ولدو؟

قال شيخ النور: رجع قالوا شغال سمسار في السوق العربي.

نفض سيد قيلة جلبابه الممزق وجيوبه المحشوة بالورق وقال: أحسن بترولنا طلع .. بعد دة ممكن الناس يجوا يحجوا عندنا!

ضحك شيخ النور وقال: بترولك دة وينو؟ أما ما شفنا منو التكتح، نفس الجوع والغلاء، أمبارح محمد علي ودا اولادو المستشفي عندهم اسهال، قبل ما يطعنوا الجلكوز للولد قالوا لي ابوه يدفع تمنو! وكت غلبو يدفع ساق الاولاد وشرد من المستشفي!

وأردف شيخ النور: انت بدل كدة ما تمشي مع فارس الجنوب تجاهدوا وتاخدوا شهادة الجهاد قالوا بتفتح ليكم الدروب يمكن بعد

داك تلقوا ليكم قطعة واطة يا سلفية من البنك يسددوها اولادكم بعدين!

عبر في تلك اللحظة حسن المجنون الذي يركب على ظهر حماره طوال اليوم، يقف في مكان واحد ونادرا ما يتحرك، فاجأه سيد قيلة: أديني الحمار دة يا حسن بديك صفارة بوص!

نزل حسن علي الفور وسلمه الحمار وتسلم صفارة البوص، ضحك سيد قيلة بصوته الاجش وهو يعتلي صهوة الحمار وقال: والله المجانين في الحلة دي أحسن من العقّال! قبل ان يضرب الحمار ويمضي.

جلس حسن يعزف بجانبهم على الصفارة وواصل شيخ النور كلامه مع فارس: وانت هسع ضامن تجي راجع من الجنوب حي؟

وقال فارس: ما قلت ليك انا ماشي أقيف بي ورا، أجيب الموية واعالج الجروح.

وقال شيخ النور: طيب الضربة ما ممكن تجي من ورا. ولا يقوم بيك لغم يبقي بدل ما تلم قرشين وتجي تعرس، يعرسوا ليك الحور العين.

قال فارس: وعرس زي دة كويس معاكم هنا تمشوا تتملوا علي حساب الحكومة واكون انا رحت شمار في مرقة.

وقال شيخ النور: ميزته الوحيدة عرس الشهيد انو ما فيهو كشف!

أخرج فارس المجنون ورقة وقلما ليحسب الارباح المحتملة من رحلة الجهاد، غفا شيخ النور قليلا ثم استيقظ علي صوت اذان الظهر، تساءل قائلا: يا اخوانا أنا فسيت؟ شميتو ليكم شئ؟ خايف يكون الوضوء اتقطع!

لم يجبه أحد، كان فارس مشغولا بحساباته، فيما مضي حسن المجنون بعيدا ونغمات صفارته تمزّق صمت الحياة في الشتاء.

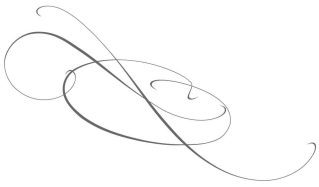

الكلب بوبي

أمس مساء عدت الي المزرعة بعد ليلة مبهجة وحافلة قضيتها مع أصدقاء قدامي، كانت ليلة رائعة رغم انها انتهت كالعادة بالعراك اثر الافراط في الشراب، قضيت وقتا طويلا في العودة ذلك أنني في البداية لم أهتد الي مكان المزرعة وحينما وصلت كنت أشعر بأنني علي ما يرام رغم أنه كان من السابق لأوانه (قبل انبلاج الصباح) أن أقرر ما إذا كنت أحتفظ بجميع أعضائي البشرية ام لا.

كان المصباح الذي تركته في البهو يضئ المكان إضاءة خافتة ومحزنة حينما خاطبني الكلب بوبي قائلا: ألا تزال تصر على السهر خارجا كل يوم؟

كان يضع ساقا فوق ساق وهو غارق في أحد المقاعد، وأدركت من رنة اهتمامه المحزون أنه كان مخمورا فقصدت حجرتي حيث احتفظ

بمخزون اضافي من الشراب وكان عليّ ان أتوقع ذلك: لقد وجدت إحدى الزجاجات مكسورة، حينما عدت مرة اخري الي البهو، كان الكلب لا يزال يجلس محزونا وكرر قوله مرة اخري: ألا تزال تصر على السهر خارجا كل يوم؟ وأتبع كلمة تزال بعواء خفيف أعطي انطباعا بان الحقيقة كانت تتسرب من شفتيه، كان حديثه محزنا، ففي الماضي كان يمكن توقع مثل هذا الهراء الجميل من النساء مثلا، لكن الزمان تغير والمرء يجب ان يتوقع أن يسمع أي شيء من الجميع.

في البداية لم أصب بالذهول فقد لاحظت منذ فترة ان الكلب كان يبدي اهتماما بالأشياء من حوله، كان يحدّق باشمئزاز في قطع الاثاث، كما أن نظرات الاحتجاج لم تخمد أبدا في عينيه كلما وقع نظره على ملابسي.

- ألا تزال تصر على السهر خارجا؟

كان يتحدث بصوت واضح وحنان منطقي مذهل، ثم عدّل وضع ساقه قبل ان يقول:

ألا تري هاهو آخر جلباب لك يعود ممزقا، كما انّ اذنك اليمني أصبحت أصغر قليلا من اليسرى، ألا تلاحظ أنك عائد من دون حذاء؟ أعاد لي حديثه شيئا من الاعتداد بالأخطاء، فأصلحت وضع جلبابي وجلست خجلا على أحد المقاعد ثم قلت مترددا مثل طفل يعترف للمرة الاولي: لم تقل لي قبلا إنك تجيد التحدث مع البشر!

- وما الفائدة في ذلك؟ لقد كنت اراقبك في صمت، على المرء ان

يتوخى الحذر احيانا لكن هذا ليس مهما، قل لي اولا، ألا تزال تصر على السهر خارجا كل يوم؟ قلت بحذر: وماذا عليّ ان افعل في المقابل؟

تبقي في البيت، تقرأ كتابا، تنظف المكان، تغسل ملابسك، تعتني بشجيرات الورد، ثم أصدر عواء فظيعا ومحزنا قبل ان يقرّر: تتزوج!

ألا تعتقد أنك تجاوزت قليلا حدود المزاح؟ لقد كان حديثه سيئا لكني شعرت بارتياح لفكرة أن الامر كله كان مزاحا ثقيلا، حتى أنني تأهبت لخلع ملابسي متجاهلا شعورا خفيا أوحي لي بانطباع غريب بأنني اتواطأ مع الكلب في أمر شنيع، وعندما سقط الجلباب أرضا سمعته يقول باشمئزاز طيب:

هذه ليست طريقة للعيش الكريم!

إنني أكره هذه العبارة، لقد استفز مخزوني من الذكريات، ذلك الذي أحرص على إبقائه في النسيان، فحينما يكون المرء متزوجا يكون مضطرا الي سماع مثل هذا الكلام ربما لمجرد المزاح او قتل الوقت. قلت محاولا تجاهل دقة الموقف: ماذا تعني؟

ثمة وميض حكيم في عينيه من ارتياح محزون قبل أن يقول: ألا تستطيع ان تفهم، مثل التلاميذ الاغبياء عليّ أن أكرّر كل شيء، لقد بقيت أراقبك طوال شهر وعندما تيقنت أنك تنحدر سريعا اضطررت الي اقناع نفسي بمصارحتك، هل لك أن تخبرني لماذا تشرب؟

إنني أشرب لأنسي!

– لتنسي ماذا؟ لأنسي..، وعلى كل قلت مزهوا، فأنت نفسك الآن مخمور كما أنك – وهذا أسوأ – لم تدفع قرشا لقد سرقت ما شربت، وارتحت لهذه الفكرة الخطرة، إنك لص، لكنه قال دون ان يبدو عليه أنه شعر بالعار: أنا لا اجيد التعامل مع البشر، وعلى كل فأنا لا أشرب لأنسي، عندما كنت أعيش في الشوارع او في الغابة القريبة كنت أشرب لمجرد الشعور بالمتعة، أما اليوم فقد شربت لأنني أعلم أن المرء لا يستطيع مخاطبة البشر وهو في حالة وعي تام.

قلت مستعيرا لهجة تهديدية مفيدة: أخشى ان اضطر يوما لطردك من البيت!

فقال دون أدني انفعال: لن يكون الشارع أسوأ من هنا! ألم تسمع قصة ذلك القاضي الذي قام بعمل ضمان لمسجون واخرجه من السجن ليبقي في خدمته بالمنزل، فرح المسجون في البداية بهذه الحرية المشروطة ثم اكتشف أنّ الملل يخيم على الحياة في بيت القاضي الذي يقضي سحابة يومه في الشراب والنوم، واكتشف شيئا مُدمرا آخر: الجوع، فلم يكن القاضي يكترث بإحضار أي طعام الي البيت، وكان يأكل إذا وجد شيئا أمامه والا فأنه لا يكترث لذلك كثيرا، تضوّر السجين جوعا ومللا وبعد أيام فاجأ القاضي بطلبه المذهل:

أنا أريد العودة للسجن يا مولانا!

– ألا تري أنك تنفق وقتك في الكلام بدلا من حراسة البيت من اللصوص؟

لصوص.. قالها متهكما ثم انفجر ضاحكا حتى استلقي ارضا – هكذا – ثم أردف بعيون دامعة من فرط الضحك: ومن يستطيع أن يميز في هذا البيت بين اللص، وبين صاحب البيت وجامع القمامة؟!

كان الموقف دقيقا للغاية، نعم فقد كان يسخر مني، والواقع أنني كنت واثقا أنّ موقفي كان ضعيفا، فقد كنت أدخل المناقشة دون حذاء وأذني اليمني أصغر قليلا من اليسرى، لذلك آثرت أن أنسحب، وعندما استلقيت في فراشي محاولا تحييد شعور خارق بالهزيمة، كان بإمكاني الاستماع الي ضحكاته المجلجلة التي كانت لا تزال تنطلق من البهو.

جارنا الذي كان يعاقر الخمر وضوء القمر!

حين تفرقت السحب من على صفحة السماء بفضل الرياح المسائية، رأيت قمر الساعة السابعة مساء يبرز فجأة مثل قرص من الفضة، يملك قدرة خفية على اضاءة أكثر أزقة الذاكرة نسيانا، كان يبدو وحيدا كأن أحدهم نسيه في الفضاء، كأنه لا تربطه أدني صلة بالعالم الذي يطل عليه، ساعي البريد المتعجل وهو يلقي بحزمة فواتير الساعة الواحدة، الحمام الجالس في الشرفات الغاصة بالزهور، المطر الكئيب في عطلات نهاية الاسبوع.

رأيت القمر وتذكرت اهل القرية البعيدة الذين كانوا حين يرونه بدرا يسرعون لإحضار نقود قليلة ليراها القمر فيكون الشهر القمري عليهم خيرا وبركة. أري القمر يقترب مني بومضة كئيبة متعالية. هل رأيتم من قبل قمرا يقتحم الذاكرة! اضاء دخول القمر فناء منسيا في ذاكرتي فرأيت نور الدين، رأيته يسير خلف أمه الطيبة، يحملان جوالات الخيش الفارغة ويذرعان

البلدة النائمة في غبار الفضة، بحثا عن غذاء لثروتهما الصغيرة من الضأن والماعز. يواجهان عسف المزارعين الذين لا يسمحون لأصحاب البهائم بالدخول الي مزارعهم: لأنّ قطع الحشائش الصغيرة يجعل زراعتهم تعطش سريعا، يتجولان من مزرعة الي اخري حتي يقبل أحدهم بدخولهم الي حواشته.

تمضي بهما كانت الايام، تكاد كلها تتشابه مثل حلقة أبدية دون نهايات، في المرة الاولي حين رأيت نورا، كان معنا عمال في البيت يقومون بحفر بئر، حين دخلت الي البيت وجدت امرأة من جيراننا تساعد امي في صنع الاكل، كانت تجلس الي الفرن الحديدي وهي منهمكة في صنع خبز القرّاصة، وبدت لي بلونها الفاحم وكأنها جزء من الفرن الاسود الضخم، لاحظت انها تصنع (القرّاصة) بطريقة غير التي اعتدنا عليها مع والدتي، بعد ان تضع العجين فوق الفرن كانت تقوم بفتح أبواب فيه كل بضع ثوان لتختبر ان كان العجين قد نضج من الداخل، بدت لي تلك الطريقة مستهجنة وغير حضارية واعلنت أمامها:

هذه المرأة لا تعرف كيف تصنع القرّاصة!

كانت تلك إهانة لا تغتفر من شاب غر وصل للتو من العاصمة ولا يعرف شيئا عن العالم الحقيقي، لحسن الحظ أنها لم تفهم أو تكترث لما قلت فقد كنت اتحدث من طرف أنفي بخليط من الفصحى ولهجة العاصمة، وبعد سنوات حين أصبحنا اصدقاء قالت لي انها حسبت انني كنت آنذاك

اتحدث الإنجليزية، فقد كانت هي تتحدث اللغة النوبية. تذكرت قصة قريب لنا ذهب ليدرس في جامعة الخرطوم ولدي عودته في اول عطلة دراسية كان يتحدث العربية بطلاقة عاصمية، وحين يسأله الناس باللغة النوبية عن الاحوال في العاصمة كان هو يجيب بالعربية الفصحى، حتى ان أحد جيراننا تساءل قائلا:

(الولد دة بقي شيوعي ولا شنو؟)

مضت حياتهما على نفس الوتيرة حتى بعد ان دخلت الكهرباء الي القرية، منتصف الثمانينات، جاء بعض اهل القرية الذين يعملون خارج الوطن، واشتروا محركا صغيرا لإنارة القرية وطلبوا من الناس انشاء جمعية تعاونية تتولي إدارة الوابور وتحصيل التكلفة بفرض مبلغ من المال على كل بيت شهريا.

وقف أحد جيراننا المسنين معترضا على مشيئة التغيير، ودافع عن وجهة نظره بأنّ الكهرباء ستفسد الاولاد!

واشتكت إحدى جاراتنا ان ديوكها لبثت مستيقظة طوال الليل في اول ايام الكهرباء، معتقدة ان الشمس نسيت ان تغرب او انها غربت ثم اشرقت بعد قليل في منتصف الليل. وقال جار آخر كان يعاقر الخمر وضوء القمر: ان الكهرباء قد تجلب لنا الشرطة والمشاكل!

وقال النور: ان الظلام أفضل. فضحك حاج الطيب وذّكره أن كراهته للكهرباء تناقض اسمه.

وفي حين كانت الاجتماعات تنعقد وتنفض مضت وتيرة حياتهما دون تغيير يذكر، واستمرت مشاويرهما اليومية بحثا عن الحشائش للضأن والماعز، وحين جاءت الكهرباء قالت نورا: نحن لا نحتاج اليها لأننا ننام حينما يأتي المساء.

وقال نورالدين: ربما يرسل لنا أخي ساتي جهاز تلفزيون نري فيه الناس الذين يعيشون في العالم الآخر. وكان يقصد الاحياء لا الموتى في العاصمة القومية، لم تخف نورا خوفها من الكهرباء فبسبب حيل إغراء الحياة العصرية هجر ابنها الأكبر القرية، وقبل سفره كاد يصيب نورا بالجنون حين ركب طائرة بعثة أجنبية تنقّب عن الآثار في المنطقة، كان ساتي يعمل معهم احيانا، انطلقت الطائرة الى السماء وانطلقت نورا تصرخ وتعدو في القرية محاولة تتبع طائر الموت الذي خطف ابنها، وحين هبطت الطائرة عائدة كانت نورا فوق سقف أحد مخازن الحبوب، على وشك الاقلاع من خلف الطائرة بجناحين صنعتهما على عجل من بقايا شراع مركب، تبخرت الواقعة من ذاكرتها ليحتفظ بها ساتي كمجد أوحد في حياته كان يعلنه حين يذّكر الناس كل مرة أنه كان أول من ركب طائرة في الإقليم وربما الوطن كله، كان يقول: (وكت أنا ركبت الطيارة، شيخ الزبير في السما ما شافها!)

ولنساعدها في الدخول الى العولمة، ذهبت انا وأخي وقمنا بتركيب لمبات كهربائية في بيتها على قواعد من الخشب بدلا من اللمبات الباهظة التي جاء أحد سماسرة الكهرباء يسحبها من خلفه بمجرد ان أطلت الكهرباء بوجهها.

قال حاج الطيب: بفضل الكهرباء ستختفي العقارب التي تلدغكم كل يوم وتلدغ أطفالكم!

وضحك الجار الذي كان يعاقر الخمر وضوء القمر وقال: إذا اختفت العقارب سيفلس شيخ عثمان!

وكان شيخ عثمان يحصل على رزقه من علاج من تلدغهم العقارب! مستخدما في ذلك بعض الأعشاب والعقاقير غير المعروفة. وكان البعض يشيعون أنه يقوم سرا بتربية العقارب واطلاقها في شوارع القرية ليلا، لتلدغ الناس فتتوفر لديه فرص العمل والرزق!

قال صدّيق الذي اشتهر بلقب صديق المزارع، لأنه كان يخلد للنوم كل يوم ولا يذهب للحواشات الا بحثا عن الأنس معتمدا في عيشه على ما كان يرسله اخوه المغترب في السعودية، وكان يردد دون مناسبة القول الشهير: تجري جري الوحوش غير رزقك ما تحوش، ورغم انه لم يكن يجري مطلقا الا انه كان يحوش ما يكفي بقاءه على قيد الحياة، اضافة لمؤونة من التبغ المحلي القمشة، كان يبرزها في شكل نعمة مغشوشة حين يقوم بلفها في الورق في البيت ويضعها في صندوق سجائر البنسون الفارغ الذي يضعه بفخر في جيب جلبابه الشفاف.

قال: الكهرباء أفضل حتى يتعلم الناس عدم النوم مبكرا مثل الدجاج!

فقال له شيخ النور الذي قرر تغيير اسمه الي شيخ الظلام:

نحن لو قاعدين ساكت زيك ما كنا بننوم نهائي. على الاقل كنا بنقوم الليل، وما زي قيامك بالعرقي!

وفجأة أعلن السر النجّار وكان مشهورا بحبه للنقاش دون هدف وبحبه على السيطرة على دفة أية نقاش برفع صوته فوق أصوات الجميع ربما تعويضا لقصر قامته الذي لا يتيح للكثيرين رؤيته في الزحام.: يا اخوان انا عندي إقتراح!

ما ان بدأ السر النجّار يشرح اقتراحه حتى برز خيط عنكبوت خفيف في الغرفة التي سجي وابور الكهرباء داخلها.

كانت الاجتماعات تنفض وتنعقد حول وابور الكهرباء فيما تمضي حياتهما على نفس الوتيرة،

غضب سمسار الكهرباء الذي جاء الي بيتها يسحب لمباته البائرة وقال لها:

كيف تقبلين الإهانة؟ عيال المدرسة يحضرون الى بيتك ويقومون بتركيب لمبة زان!

كان حديثه مقنعا، كان يمكن تصديق السماسرة في القرن الماضي، حتى ان نورا نزعت اللمبات وهي مضيئة وهشمتها على الارض، مثيرة عاصفة صغيرة من غبار النيون، فيما انهمك السمسار في تركيب لمباته، وحتى لا يجعلها الغضب تنسي ان تدفع له تكلفة اللمبات قال لها ملاطفا:

(أهلك كلهم سمحين، اشمعني انتي طلعتي شينة كدة؟)

أحالته بعنف الي المسئول الحقيقي، قالت والشرر الأحمر يتطاير من عينيها: أسأل أمي وأبوي!

كان مسنا ومهلهل الجسم، ورغم أن منظره يوحي بانه يمتلك الحكمة ويستطيع حل أية مشكلة في العالم، لكنه كان يتعارك مع الأسلاك ولمبات الكهرباء ويسب الدين عدة مرات، حتى ينجح في كل مرة في توصيل احدى اللمبات التي تشتغل بفضل الصدفة لا بفضل الكهرباء. وكاد وابور الكهرباء يحترق عدة مرات بسبب توصيلاته الخاطئة. حكى لنورا أنه هجر الزراعة وامتهن كل شيء آخر بسبب قلة عائدها. وأنه أصبح مسنا لا طموح له أبعد من موت هادئ في فراشه نهارا، فقد كان يؤمن بقداسة النوم الليلي وأنه ما من شيء في الدنيا يمكن أن يبرر إزعاجه وقطع استغراقه في النوم ليلا، لكنه كان يعمل لتوفير بعض المال ليشجع ولده الوحيد على الزواج، فقد كان يخشى أن يسافر ولده بعيدا ولا يراه مرة أخرى.

مضت حياتهما بنفس ايقاعها، فيما استمرت الاجتماعات لحسم معضلة هل يمكن العيش دون كهرباء، حتى الصباح المشئوم، شعر نور الدين بألم غريب في حنجرته، قال المساعد الطبي الذي ذهبا اليه مساء: هذا التهاب بسيط في الحلق وأعطاه حقنة بنسلين ونصحه بشرب اللبن.

في اليوم التالي كان الألم لا يزال مستمرا، وبعد شهر كامل تحدث فيه السر النجّار عدة أيام دون توقف، وضحك جارنا الذي كان يعاقر الخمر

وضوء القمر ألف مرة، وامتد فيه خيط العنكبوت في غرفة الكهرباء بضعة سنتيمترات، استمر الالم في حنجرة نور الدين.

ذات مرة كان جارنا الذي يعاقر الخمر وضوء القمر نائما في لجة الضحي في منتصف الطريق العام، حين أيقظه العم ابراهيم وقال له معاتبا

كيف تسكر وانت زرت بيت الله؟؟

فقال جارنا الذي يعاقر الخمر وضوء الفمر:

زربوه.. ما بنمشي تاني!

قال الطبيب في المدينة: يجب أن يسافر الولد الي الخرطوم!

باعت نورا جزءا من بهائمها وارسلته مع بعض اولاد الجيران الي ساتي في الخرطوم،

بعد أسابيع عاد نور الدين دون أن يعرف شيئا ومع ألم الحنجرة كان يحمل رسالة من سطر واحد، قرأتها لنورا، وكان مكتوبا فيها

والدتي الحبيبة: لكم السلام والتحية، بخصوص الأخ نور الدين، الأعمار بيد الله!

ابنكم ساتي

صعقت نورا وصرخت ان ساتي اصيب بالجنون، ذهبت الي أحد الجيران القادمين من الخرطوم وعرفت ان ابنها مصاب بمرض خبيث

لا شفاء منه.

وقف عبدالله فوق المجتمعين وقال يا اخوان ادفعوا لنا حق الجاز وبعدين ارجعوا اجتمعوا، الجاز على وشك ينفذ، وستوقف محرّك الكهرباء! ولو الكهرباء توقفت لن تجدوا شيئا تجتمعون من أجله! قاطعه السر النجّار: لحظة أنا عندي إقتراح سيحل المشكلة تماما!

لم تقتنع نورا بأطباء الخرطوم: اللعنة تغشاهم قالت، سماسرة لابسين ملابس ملائكة، كل همهم القرش، الرحمة عندهم بالمال، ذهبت الي شيخ عثمان:

ولدي يا شيخ عثمان، جنا بطني وغتاي، ستري وروحي!

بعد أن إستشار وإستخار حدّد شيخ عثمان المطلوب:

عسل نحل أصلي اسود، وزيت سمسم، ظلف ناقة صفراء، لبن حمار أسود، زيت زيتون، وحبة البركة.

وقف عبد الله صارخا: يا اخوانا اتركوا الكلام وادفعوا قروش الكهرباء عشان نقدر نعمل صيانة للوابور ونشتري الديزل والزيت، أو تعالوا استلموا الوابور. وكفي الله المؤمنين شر الكهرباء!

ويعود عبد الله للصراخ ليطفو صوته فوق صوت غناء جارنا الذي كان يعاقر الخمر وضوء القمر:

يا شيخ ابراهيم ولدك رسل ليك قروش عشان الكهرباء، أدفع لينا اشتراك ثلاثة أشهر عشان نشتري الديزل!

ويقول الحاج ابراهيم وهو يتحسس النقود في جيبه:

القروش ولدي أرسلها لي، ما أرسلها للكهرباء! لا حاجة لي بالكهرباء، أنا على وشك أن افقد بصري، لا فرق عندي بين النور والظلام!

والآم الحنجرة تزداد والصوت يختفي والرقبة تتضخم، رغم العلاج المكثّف.

حتى وقف عبدالله صارخا فيهم ذات صباح: يا جماعة انتو لسة مجتمعين؟ الحكومة انقلبت والعسكر استلموا السلطة، وانتو ما جايبين خبر!

قال السر النجّار: الرئيس الجديد اسمه منو؟

قال عبد الله: اسمه البشير!

نهض جارنا الذي يعاقر الخمر وضوء القمر صارخا وقال

لا حول ولا قوة الا بالله.. الأزهري قلبوه!؟

تفاصيل يوم واحد من حياة رجل عادي

يعشق العرقي ولا يكترث للماضي خاصة ان كان ماضيه فاشلا كما سيقول له بعض الناس، يحاول أن تمضي تفاصيل حياته اليومية كشخص عادي، لا تؤرقه أية ذكريات، قضي عدة سنوات من عمره في عاصمة اوروبية يدرس طب الاسنان، حين يتحدث عن تلك الفترة في أحيان نادرة كان يعترف دون مجد:

عشرون عاما من غسيل الأواني!

سيذّكره ببعض التفاصيل التي يحاول دفنها في النسيان، زميل شاطره الدراسة الفاشلة والاحلام المؤجلة وغسيل الأواني وشراب الخمر الردئ في حانات البحارة، لكنه يبقى نقطة ضعف، كونه يعرف كل الاسرار التي لا يجب ان يعرفها البعض ممن يشاطرونه العرقي ويشاطرهم فضائحهم، ما ان يشرب الكأس الاول حتي يفارقه كل هدوءه ويتفرغ فقط للشتائم.

تتحدث في السياسة ايها الوضيع.

حتى ذلك الرجل الطيب لم يسلم من لسانه، الرجل الطيب الذي يؤمن بأن كل رزق يستحق الشكر فيقول له حين يقدم له كأس العرق: جزاك الله خير، ويقول حين يري زجاجات العرق المرصوصة على المائدة في انتظار مصيرها المحتوم،

ما شاء الله تبارك الله: يخشى على كل هذا الرزق من العين.

يقول عبد السميع: شربنا مع كل اصناف البشر ولم يسبق ان شربنا مع مثل هذا الشخص العبيط!

فيقول العبيط: جزاك الله كل خير.

يذّكره زميل الفشل بماضيه، حتى يجبره على تجاوز مرارة الذكري يبحث عن أسوأ ذكرياته:

أسكت يا لاحس فروج النساء!

تستفز العبارة زميل الفشل فيقسم: عبد السميع لو تاني قلت الكلام دة العرقي دة حيكون في رأسك!

زملاء الليل بعضهم تستفزهم شتائمه فيبدأ العراك ولا ينتهي قبل ان تتحطم عدة مقاعد فوق رأسه، صديقه الزين لا يرد عليه الا بعد ان يفرغ كل مرارة أحقاده.

يسأله: خلّصت. وحين يسمع أيوة، تكون تلك الكلمة ايذانا بانطلاق جهاز الراديو الصيني واستقراره مهشما في رأس عبد السميع ليكون ذلك خاتمة السهرة. وفي البيت الذي اقاما فيه فترة من الزمان تمددت مساحة اجهزة الراديو المهشمة حتى ابتلعت الفناء كله.

ويقول الزين: لحسن الحظ انها رخيصة، نسمع نشرة أخبار الكذب ونقتص منها على نقل الأكاذيب! ويقول مقلدا مذيع نشرة الاخبار:

صرح المشير وأعلن الرقيب: ارتفع معدل النمو الي 11 في المائة، يوضح: نمو في جيوبهم ونحن لا نجد شيئا نأكله.

اثناء النهار يجلس في متجر والده الراحل، الدكان فارغ تقريبا الا من بقايا أشياء قليلة لم يعد تمييزها سهلا بسبب أطنان الغبار من مخلفات أعاصير القرن الماضي، يجلس عبد السميع صباحا أمام المتجر، يشرب القهوة ويراقب الناس، ينسي تفاصيل الليلة السابقة، تصطدم صور الذكريات التي تترقرق احيانا الي ذاكرته مصحوبة بعطر غامض يجعله يشعر بخدر طفيف ولذة لا تمت بصلة للزمن الحاضر، يري نفسه صبيا يجلس الي منضدة في منتصف الفناء الواسع في بيتهم وعلي ضوء مصباح الزيت كان يحاول ان يكتب الشعر، مضيعا الوقت كله في الزعيق فوق اخوته الصغار ليصمتوا حتي يجد شيطان الشعر فرصة ليهبط فوق رأسه، وفي محاولة طرد البعوض الذي يجذبه ضوء المصباح بكثافة اكبر كثيرا من انهمار الشعر الي رأسه. انه الوحيد الذي يسب الدين لشيطان الشعر ليزوره دون جدوى.

ضاعت القصيدة الوحيدة التي نجح في كتابتها في متاهة السنوات ولم يتبق منها سوي وهج بعوض المصباح وبعض بقايا تفاصيل شجاره مع اخوته الذين توزعهم العالم.

ذات مرة صمم ندماء الليل على عدم اعطائه الفرصة لاستفزازهم بشتائمه، قال للنور: ايها الكلب تسير طوال النهار وراء زوجتك التي لا تشبه النساء، أفضل جزّار لا يستطيع ان يستخرج منها كيلو لحم واحد!

فقال النور: جزاك الله خير!

وقال للطيب: عامل فيها شيخ يا دجال وانت كل قطعة لحم في جسمك بالحرام، ابوك مشي السعودية قال للناس داير ابني جامع، جمع النقود وسرقها ولم يبن ولا حتى زاوية!

قال الطيب: بارك الله فيك يا أخي!

قال لعثمان: عامل فيها دكتور وانت كل همك تتفرج على أعجاز النساء، اي واحدة تزور المركز الصحي حتى لو عندها وجع ضرس تديها حقنة في المؤخرة!

فقال عثمان: فضلة خيرك ربنا يديك العافية!

وقال للزين: اليشوفك بالنهار لابس هدومك المكوية يقول دة المحافظ مش مخزنجي في المجلس!

عرف الزين أنه سيوفر جهاز راديو لسهرة الغد: نعمل شنو دي قسمة ربنا!

قال لزميل فشله: يا لاحس فروج النساء!

ابتلع الزميل اعصارا من الغضب حتى سمعت اصوات قرقعة العاصفة داخل بطنه وقال: أفضل من آخرين (يلحسون) كلامهم!!

نظر عبد السميع حواليه، وضع كأس العرقي جانبا ولبس مركوبه خارجا: ما بسكر لي مع لواي.....!

يشرب القهوة في الصباح أمام المتجر، لا يزعجه سوي الاصوات العالية، أحدهم ينادي على المركب الواقفة في الشط الاخر، أحدهم يصيح وهو قادم من المشرع: ايوة أنا شاهد في القضية، يكررها عدة مرات يصيح فيه عبد السميع: اصلك شاهد في لوكربي! ما يا حمار مسروق يا قزازة عرقي!

أقنعه الندماء ان يذهبوا الي حفل عرس، اقتنع بعد لأي، كان يخشى من المضايقات بمجرد ان نزل من المركب وهو يترنح حتى قل احدهم:

ألحق عبد السميع كرجبون! (أي سكران بشدة باللغة النوبية!)

فقال له: ايوة كرجبون، كرجبون من جيبك يا سخيف!

يقول زميل فشله: عشرين سنة تقرأ طب اسنان يا عبد السميع، وضم صباعيه ليبين تفاهة الشيء الذي سيشير اليه: ضرس.. ضرس ما تقدر تقلعه!

نسي عبد السميع التهديد وقال: اسكت يالاحس فروج النساء!

أمسك زميل الفشل بجركان العرقي، وسكبها فوق رأس عبد السميع الذي اخرج لسانه لانقاذ ما يمكن انقاذه من العرقي السائل فوق وجهه بكثافة!

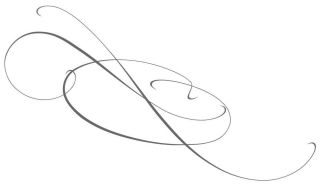

الطفل العاري والوردة الحمراء!

في ذكرى الثورة المجيدة خرجنا لنحتفل بالمناسبة، لم نكن نعرف بالضبط أية ثورة عظيمة كانت تلك التي سنحتفل بها. لم نعرف الا بعد ان أحضروا لنا اللافتات القماشية الضخمة التي سنحملها فوق رؤوسنا ومكتوب عليها بالخطوط الزرقاء الكبيرة عاشت ذكرى ثورة يونيو العظيمة. كان الجو قائظا حتى أنّ أحد زملائي علّق هامسا حين أحرقتنا الشمس مجرد أن غادرنا مبنى الشركة التي نعمل بها.

ألم يكن بإمكان هؤلاء العسكر الانتظار قليلا حتى يحل الشتاء، ثم يقوموا بثورتهم المجيدة هذه!

شعرت برغبة في التمرغ في الأرض من فرط الرغبة في الضحك لكن الضحكة لم تخرج من جوفي، شعرت بقوة مجهولة تقمع ضحكتي وتحولها الى طاقة خوف مكبوتة، قلت له: كيف تقول ذلك عن الثورة التي انقذتنا!

نظر لي زميلي مندهشا ولم يقل شيئا. رأيته يحمل احدى اللافتات ويرفعها عاليا ويزعق بصوت عال: عاشت الثورة العظيمة.. الموت للعملاء.. الموت للخونة! حين ابتلعنا الشارع الذي كان على وشك ان يشتعل بفضل حرارة الصيف الجهنمية. بدأ زعيقنا يخفت، كأنّ طاقة خفية تدفعنا بدأت في الزوال تدريجيا كلما توغلنا في صمت الشارع، لم نر أية إنسان يصفق للمسيرة او حتى يعبر بجانبها. كانت الشوارع خالية كأن كل شيء فيها ذاب بفضل القيظ، فجأة توقفت المسيرة المنهكة أمام طفل صغير لا يرتدي أية ملابس فوق جسمه الصغير، كان يمد يده طالبا للمساعدة.

انتبهنا الى أنفسنا في مرآة الطفل العاري، رأينا وجوهنا المحروقة بسبب الجحيم، وملابسنا البيضاء التي رأينا في مرآة الطفل الرعب الذي كانت تثيره ملابسنا البيضاء في العالم من حولنا، حيث نبدو مثل مظاهرة للموتى في أكفانهم يخترقون الشوارع لإغراقها في الصمت وحمى الموت.

بحثنا في جيوبنا عن شيء نعطيه للصبي فلم نجد شيئا، وجدنا في جيوبنا مفاتيح قديمة مغطاة بالصدأ وبقايا ألعاب أطفال، أعطي أحدنا للطفل الصغير لعبة بلاستيكية خضراء صغيرة تصور دبا ينطلق جاريا بمجرد ان تقوم بتعبئة مفتاح الظهر الذي يشبه مفتاح علبة السردين. بمجرد ان تسلم الصبي اللعبة وضعها في فمه وحاول ان يأكلها وحين استعصت اللعبة على أسنانه لفظها ومد يده مرة اخرى طالبا قطعة خبز، بدأنا نفتش جيوبنا مرة اخرى، خرجت في جنون التفتيش هذه المرة، قطع نقدية صغيرة يعلوها ايضا الصدأ لابد انها سحبت من التداول منذ سنوات منذ آخر تغيير للعملة الوطنية. أخرج

أحدهم وردة ذابلة يعلوها بعض الصدأ ودفع بها للصبي، حمل الصبي العاري الوردة ونظر اليها برهة، كان المنظر مدهشا لنا حتى انني حاولت الاحتفاظ بصورة تلك اللحظة المدهشة للصبي العاري الجائع الذي يحمل وردة في يده فيما الشمس الحارقة تغرق خلفية الصورة. لكنني لاحظت ان الصورة كانت تقاوم حفظها في الذاكرة، لم أجد شيئا في ذاكرتي بعد قليل سوى بقايا الرماد المتخلف من احتراق الصورة، اكتشفت شيئا مثيرا: يمكنني حفظ الصورة في ذاكرة الصبي نفسه!

تعلم الطفل بعض الحذر من تجربة اللعبة البلاستيك حتى انه دفع بجزء صغير من الوردة داخل فمه، تغير شكل وجهه كأنه وضع سما داخل فمه، تسلل مذاق السم الى فمي حتى انني دهشت ان وردة بهذا الجمال تحمل في دواخلها طبيعة عقرب! اخرج الطفل الوردة من فمه لكنه لم يلقها مثلما فعل مع لعبة البلاستيك. كان واضحا من حيرته أنه مقتنع بأن الوردة يمكن ان تساعد في شيء ما، لكنه لا يستطيع تحديده، رفع يده فارتفعت الوردة باتجاه الشمس وبدأ شكلها يتغير، سرى دم خفي في أوراقها فاستعادت نضار وردة لم تقطف أبدا وتحول لونها الى اللون الأحمر. عندها تقدمت المسيرة مرة أخرى وتجاوزت الطفل العاري صاحب الوردة الحمراء.

ارتفعت اصواتنا مرة اخرى تزعق بنفس الشعارات المكتوبة على اللافتات التي نحملها، كأن مشهد الطفل العاري اعاد شحن بطاريات اصواتنا. ثم فجأة بدأت أصواتنا تخفت مرة أخرى، لتتوقف المسيرة للمرة الثانية فجأة على مشهد طفل صغير آخر يمد يده طالبا المساعدة! بدأنا نبحث

في جيوبنا مرة اخرى، وجدنا اشياء بلاستيكية رخيصة، قطعة حبل، قلم رصاص، عازل طبي خرج خطأ وشعر صاحبه بحرج شديد وحاول سحبه لكن الوقت كان قد فات. قال أحدنا: لا يوجد مال في جيوبنا رغم اننا نعمل في بنك الوطن!

انتبهنا في تلك اللحظة للمفارقة الغريبة لكن ذلك لم يستمر سوى ثانية واحدة، ليتواصل البحث في الجيوب دون جدوى، اعطينا الطفل قلم الرصاص فوضعه فورا في فمه، يبدو ان طعم القلم الرصاص لم يكن سيئا كما كنا نعتقد، فقد أكل الصبي جزءا منه، تركنا الصبي يمضغ قلم الرصاص وواصلنا سيرنا، فجأة اكتسحتنا عاصفة خريفية حملت معها اليافطات القماشية الى الفضاء وهطل وابل غزير من المطر، لكننا واصلنا مسيرنا رغم عوائق الطبيعة. أصبح الجو باردا فجأة وارتجفت أجسامنا بسبب البرد والمطر. قال زميلي الذي انتقد ثورة الصيف في البداية: ألم يكن بإمكان هؤلاء العسكر الانتظار قليلا حتى يحل الصيف ثم يقوموا بثورتهم المجيدة هذه!

قلت وكأنني منوم مغناطيسيا: كيف تقول ذلك عن الثورة التي انقذتنا!

لم يندهش زميلي فقط لكلامي، لكنني ايضا دهشت مما قلت حتى انني لكمت رأسي لأتأكد أنني لست نائما. هز زميلي رأسه ثم رفع صوته بحياة الثورة العظيمة وموت العملاء والخونة.

تقدمت المسيرة، كنا نشعر أن مسيرتنا يجب أن تستمر رغم علمنا أنها

تمضي دون هدف الى المجهول، توقفنا مرة أخرى بعد قليل على منظر طفل ثالث يمد يده طالبا المساعدة. لم نتوقف كثيرا للبحث هذه المرة، أعطيناه قطعة الحبل البلاستيك التي بقيت معنا وواصلنا المسير دون حتى ان نعرف ان كان سيحاول أكل قطعة الحبل.

فجأة توقفت المسيرة أمام جدار عال يمتد على مد البصر يمينا ويسارا. وقف الزميل صاحب ثورتي الشتاء والصيف واقترح ان نعود من حيث اتينا، قال عبارة غريبة لم يفكر فيها أحد: ربما وجد هذا الجدار لينبهنا الى انه لا يمكننا ان نستمر في مسيرتنا هذه الى الأبد.

قال أحد زملائنا: هل تعرفون كم يوما لبثنا؟

تلفتنا جميعا نبحث عن إجابة، كان منظر ملابسنا يقول اننا لم نغيرها لعدة أيام وربما أشهر.

عدنا من نفس الطريق الذي جئنا منه، حين مررنا بمكان الطفل الثالث الذي اعطيناه قطعة حبل، لم نجده في البداية، لكن حين اقتربنا وجدنا جسده مشنوقا يتدلى من شجرة قصيرة! لقد انتحر مستخدما نفس الحبل الذي اعطيناه له. رأينا أنفسنا في مرآته نرتدي أكفاننا البيضاء! كنا مثل ثلة من الموتى يتظاهرون في الجحيم!

وجدنا أنفسنا نجلس أرضا وننخرط في البكاء، لم نعرف ان كنا نبكي على الطفل الذي شنق نفسه أو على صورتنا التي رأيناها في مرآة الطفل الميت.

بكينا حتى استنزفنا آخر قطرة دمع، وحتى نسينا سبب بكائنا. قبل ان نواصل المسير، حين وصلنا الى مكان الطفل الثاني، اجتاحنا الفرح فقد كان الطفل حيا، كان لا يزال يمد يده طلبا لأية مساعدة. لم نجد أثرا لقلم الرصاص. حمل أحدنا الطفل فوق رأسه وواصلنا المسير، مجرد أن رفعنا الطفل فوق رؤوسنا حتى بدأت الحياة تسري في عروق المسيرة المرهقة، وصلنا بعد قليل الى مكان الطفل الثالث وجدناه لا يزال حيا لحسن الحظ، كان قد استخدم وردتنا الحمراء كغطاء لعورته. حمله أحد زملائنا في المقدمة ووضعه فوق رأسه.

، قال زميلنا صاحب ثورات الشتاء والصيف: لدينا الان لافتات حية لا نحتاج لننظر اليها كل مرة لنعرف ماذا نقول!

لم نندهش هذه المرة لكلامه، شعرنا بمسيرتنا تصبح أكثر قوة وعددا وهي تهدر في طريق العودة الطويل.

2013

انقلاب الرقيب أول عبد الحليم!

منذ عودته الي القرية قبل سنوات بعد ان أُحيل الي المعاش من وظيفته كسائق في إحدى المؤسسات الحكومية، التي عمل فيها بعد أن ترك الجيش الذي التحق به كمجند لعدة سنوات، وهو يمارس حياة روتينية تخلو من أية مفاجآت، يخرج صباحا ليبحث عن بعض الحشائش لبقرته، يعود الي البيت ليتناول الافطار ثم يذهب الي المسيد ليبقي فيه حتى أداء صلاة العشاء ثم يعود ليخلد الي النوم. يعيش وحيدا بعد وفاة زوجته واستقرار ابنه في الخرطوم، حيث تباعدت رسائله وان كان بعض المال الذي يقيم الأود بالكاد يصل منه كل بضعة أشهر.

لا يكاد أحد يلحظ وجوده، يستمع الي المناقشات التي تدور داخل المسيد في الفترة ما بين صلاتي المغرب والعشاء دون ان يشارك في شيء، يشعر أحيانا بأنه موجود في العالم بالصدفة، لا يفهم حتى سبب وجوده في

أي مكان، حتى أنه يعيد التحديق في الاشياء والوجوه من حوله ليتأكد أنه لم يضل الطريق، وأنّ شبح شجرة الحراز الضخمة التي يجلسون بجانبها، هي نفس الشجرة التي قضى طفولته يلعب مع أقرانه في الساحة حولها، وأنّ العالم هو نفسه العالم الذي عاش فيه أكثر من نصف قرن دون أمجاد كثيرة تُذكر سوى بقائه قيد الحياة على حافة هذه الصحراء .

يحتاج النقاش في المسيد احيانا أن يدلي شخص عاش في العاصمة برأي بحكم معرفته بالعاصمة. ينسي الجميع انه عاش جزءا من حياته في الخرطوم، أو كأن رأيه أو معلوماته عن العاصمة لن تقدم شيئا يفيد النقاش. لا يتذكره الناس الا نادرا حين يرد اسم شخص ما لا يستطيع أحدهم تقدير عمره، حيث يقع سنه في تلك المسافة الضبابية بين الخمسين والستين التي لا يستطيع أحد تحديد ان كان صاحبها شابا ام مسنا، فيعلن أحدهم عندئذ:

والله هو بيكون من دور عبد الحليم كدة!

عندها ينتهي الموضوع بسرعة، يعرف الجميع ان الشخص المعني لا يمكن تحديد عمره بالضبط ابدا.

أصبحت البقرة جزءا كبيرا من حياته، يبالغ في العناية بها، المراح داخل البيت، يعيد كل يوم تجديده وتدعيمه بأعواد من الخشب والقش حتي لا تضايقها اشعة الشمس الحارقة، يخلد الي النوم مساء في الفناء قريبا منها، صباحا يحلبها ويصنع بنفسه الشاي، يحب شراب الشاي باللبن صباحا بكمية كبيرة من السكّر، معظم النقود التي يرسلها ابنه يستهلكها في شراء

السكّر، يمضي فترة ما بين صلاتي العصر والمغرب بجانب بقرته بعد ان يضع امامها كومة من الحشائش ، يحادثها أحيانا، يتذكر أصناف الاكل الشهية التي كانت زوجته تصنعها من حليب البقرة. ذات مرة جاءت ست البنات جارته تحمل له رسالة احضرها شخص ما من ابنه في الخرطوم ووجدته يحادث البقرة، فذهبت لتخبر جاراتها أن عبد الحليم فقد عقله، قالت: وجدته يتحدّث مع البقرة!

يمضي في رحلة النسيان اليومية وسط الناس، حتى يتذكره أحدهم مستخدما اسمه لإضفاء الغموض علي عمر شخص ما، بعد نهاية مراسيم صلاة العشاء وتناول طعام العشاء يجلس بعيدا قليلا من الصبية الذين يسمرون في ضوء القمر ويدخنون، يمد يده احيانا فيضع أحدهم فيها سيجارة قمشة، يجتر دخانها ببطء وتلذذ، كأنها سيجار كوبي، حتى تنتهي السهرة فجأة حين يقول أحد الشباب الذي يتذكر فجأة أنه متزوج: (سأتبول وأعود بعد قليل!)

فيعرف الجماعة أنه سيزوغ ولن يعود مرة أخري، ثم يتمطى أحدهم بعده ويقول: (السهر ضريرو!)

أي ان السهر يضر الصحة!

فيعرف البقية أنه تذكر أنه متزوج ولا يجب أن يبقى كثيرا مع هؤلاء (العذّاب)، ثم ينسحب الصبية ويكتشف عبد الحليم أنه أصبح وحيدا، يهب واقفا ويتجه الي البيت، يجد البقرة تهش الذباب النائم فوقها بذيلها

وهي تلوك بقية ما اكلته نهارا من حشائش وقصب، يخلد الي النوم، لتبدأ نفس الرحلة صباحا.

حتى الصباح الذي فتح عينيه على منظر البقرة المتكومة في الفناء، حسب انها كانت ترقد ارضا وذهب ليؤدي صلاته ثم احضر جردل الحلب ليكتشف ان البقرة كانت ترقد دون حراك.

لم يصدّق في البداية وجري مرتبكا الي خارج البيت يبحث عن شخص يساعده، وجد الطاهر ود ابراهيم الذي جاء معه ليفحص البقرة ويعلن ان البقرة كانت ميتة، قال الطاهر: يظهر أن ثعبانا لدغها ليلا. وبالفعل نظر الطاهر الخبير في اقتفاء الاثر حواليه وحدّد مكان ثعبان (ابو الدفان) الذي يختبئ داخل التراب، ويترك اثناء سيره آثارا طفيفة فوق الارض، أحضر الطاهر معولا وضرب به الارض فشطر الثعبان الي نصفين.

ذهب الطاهر لينادي على بعض الشباب لمساعدته على سحب البقرة للخارج ودفنها، بقي عبد الحليم ساهما طوال أيام عن كل ما حوله، بقي لا يغادر البيت عدة ايام، لم يسأل عنه أحد، كان الزمان موسم الحصاد وانشغل الناس بجمع المحصول، وبغلاء المعيشة ومشاكل الحياة. بعد أيام، استيقظ في الصباح وبعد ان قام بإداء الصلاة اخرج حقيبة حديدية يحتفظ داخلها ببعض ملابسه القديمة التي شهدت تحولاته الوظيفية واسفاره داخل الوطن، وجد ملابسه العسكرية بحالة جيدة جدا، كانت زوجته الراحلة قد حفظتها مع بقية ملابسه القديمة في تلك الحقيبة. أخرج الزي العسكري

وارتداه بالكامل وخرج الي المسيد وهو يسير بخطوات عسكرية بطيئة. كان هناك مأتم في ذلك اليوم في المسيد، توفيت مك الدار العجوز بعد ان قارب عمرها المائة. ظهر عبد الحليم فجأة بملابسه العسكرية حتى ان الشباب الجالسين في المكان ولوا الادبار معتقدين أن هناك هجوم من قوات الجيش، بحثا عن الشباب لإرسالهم الي الحرب. لم يتعرف عليه الناس في البداية، لكنه لم يهتم كثيرا بردود فعل الهاربين، حيا الناس بعصاه وافتتح خطبته بعبارة ايها المواطنون الثوار الاحرار الشرفاء.

انتبه الناس الي انه عبد الحليم، التزم الجميع الصمت بسبب المفاجأة، فالرجل كان معروفا عنه قلة الحديث الى الناس حتى قبل حادثة موت بقرته.

همس الزين الكذّاب: ما دام أصبحنا شرفاء هل ستكون هناك انتخابات!؟

قرأ عبد الحليم بيانه الأول، كان مرتبا وواثقا حتى أن البعض استغربوا عدم سماعهم لموسيقي عسكرية مصاحبة. أعلن أن الجيش استولي على السلطة بسبب الفوضى التي تجتاح بلادنا.

علّق عصام مرتبكا وهو يبصق السعوط: ما هو الجيش أصلا مستولي عليها!

وقال شيخ الطيب: أول مرة اشوف لي انقلاب يوم السبت! يوم السوق الأسبوعي!

استأنف عبد الحليم بعد برهة صمت قراءة البيان:

إن الغلاء الشديد الواقع على كاهل المواطنين وتخلي الدولة عن التزاماتها تجاه الفقراء، هو السبب الاساسي الذي دفع بالجيش للاستيلاء على السلطة، وأن الاختيار وقع عليه باعتباره أعلي الرتب العسكرية ليصبح رئيسا لمجلس قيادة الثورة ورئيسا للجمهورية ورئيسا للوزراء.

قال شيخ الطيب هامسا لشيخ النور: يا اخوان الرجل يظهر عليه انه جاد. بعدين يقصد شنو بالكولونيل عبد الحليم؟

ضحك شيخ النور وقال: وحالتك كنت قاضي في المحكمة الشعبية! كولونيل رتبة في الجيش، يعني عقيد.

قال الطيب: وعبد الحليم متين وصل رتبة عقيد؟ لغاية نزل المعاش كان بشريط واحد! أي زول يجي ماري جنبه حتى لو وكيل عريف، كان عبد الحليم يخبط كراعه في الأرض ويحييه!!

ضحك شيخ النور وقال رقيب عقيد مشير، كله ما جايب همه، الشغلة اصلا هاملة، البيصحى بدري كل يوم ناطي فيها ببندقيته.

انهي السيد الرئيس بيانه بإعلان انه سيتم اعلان الحكومة الجديدة خلال ايام قليلة.

قال شيخ النور لشيخ الطيب: لو اختارني وزير، حأكون أول واحد يعترف بالنظام الجديد!

ضحك شيخ الطيب وقال: انت زول عاشق للبهائم والبقر عشان كدة نعملك وزير للثروة الحيوانية!

ضحك شيخ النور وقال وانت عاشق الراديو نعملك وزير للإعلام والاتصالات! واول قرار ليك حيكون زيادة عدد الموتى في نشرة الساعة الثامنة مساء! عشان تحقق أمنيتك ويكون في عزاء كل يوم في المسيد، وانت تلقي الونسة والاخبار!

ضحك الطيب وقال: دي وزارة تعبانة ما فيها لبع، الاّ كان اسرق لي ميكرفون!

فقال شيخ النور: داير تآكل الحرام على آخر عمرك!

ضحك شيخ الطيب وقال: حرام ولا حلال انا لاقي!

لاحظ الزين: طيب ما تعمل زي عبد الستّار، أعمل ليك لحية، وأبواب الخير تنفتح عليك من كل الجهات!

قال عصام: يا اخوانا الزول دة جادي؟ يظهر المخ لحق أمات طه!

بعد ان أنهي بيانه جاء السيد الرئيس ليجلس ارضا على البساط، هرع عصام يقدم له القهوة، قال لعصام، الرجاء ان تقدموا القهوة للحرس الجمهوري في الخارج.

شاع خبر الانقلاب المحلي في القري المجاورة وتدافع الناس لمشاهدة

الرئيس الجديد.

سأل أحد الزوّار: اين الرئيس؟

اشار شيخ النور الي بيت عبد الحليم الصغير المسقوف بالقصب والمجاور للمسيد وقال: عنده مشاورات في البيت الأبيض!

وقال شيخ الطيب: الليلة إعلان الحكومة الجديدة.

وقف بعض الصبية أمام بيته يؤدون دور الحراس، تشاجروا مع امرأة مسنة كانت تحمل عريضة تريد تقديمها للرئيس حول ابنها الذي اختفي منذ سنوات بعد ان ألقي الجيش القبض عليه في أحد الاسواق. خرج الرئيس بعد قليل، تسلم العريضة من المرأة وقرأها على مهل، كانت مكتوبة بخط سيء فقد كتبها عبد العاطي الذي كان يكتب الرسائل لأهل القرية مقابل وجبة عشاء من (السك) وهي نوع من الخبز يصنع من الدقيق والتمر، للرسائل العادية، ومقابل نسبة من الاشواق للرسائل العاطفية حيث يشترط ان يقرأ ردود الرسائل التي يكتبها. كانت مقدمة العريضة طويلة جدا وصيغت بأسلوب عاطفي حزين حتى أن الرئيس استغرق في البكاء قبل أن يكمل قراءة العريضة.

وضحك شيخ النور الجالس في المؤخرة وهو يقول هامسا لمن حوله: والله دة أحسن رئيس، أول مرة أشوف رئيس يبكي!، في العادة المواطن يبكي من القهر والفقر لكن يوم ما سمعنا رئيس واحد بكى لحالنا!

جفّف الرئيس دموعه وأصدر قرارا جمهوريا بإعادة الولد الي أمه فورا، وطلب ارسال نسخة من القرار الي الاذاعة. ثم وقف ليتلو بيان تشكيل الحكومة الجديدة.

النور حسن ابو العينين خليل نور الدين..

ضحك شيخ النور في المؤخرة وقال: والله اسمي الكامل دة انا ذاتي نسيته، يا ربي الزول دة لقاه وين؟

نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية.

زغردت النسوة في الخارج ووقف شيخ النور مبتهجا وأعلن: يا سلام على الرئيس البيفهم، بعد كدة سياستنا الخارجية حتكون متوازنة وتراعي مصالحنا زي ما بنسمع في الاخبار.

الطيب صلاح الدين علي نور الدين

وقال شيخ الطيب: الله أكبر.

وزير الزراعة والانتاج الحيواني.

ضحك شيخ الطيب وقال: الزراعة دي محل ما نمش ورانا ورانا، ما كان يشوف لينا حاجة تانية!

الزين المصباح علي نور الدين.

وزير دولة بوزارة الصحة والتأمينات الاجتماعية.

ارتبك الزين وقال: طمنونا يا جماعة وزير دولة دي شنو؟

ضحك شيخ النور وقال دي زي ما تقول كدة مساعد وزير ما تقدر تأخذ قرار لو ما شاورتنا.

مبارك عبد الرحيم الحسن نورالدين:

زغردت إحدى النسوة في الخارج:

وزير الداخلية.

وضحك مبارك وقال: اي زول داير رخصة سلاح، رخصة قيادة، باسبورت يجي علينا ونحن في خدمة الشعب.

عصام الفضل محمد نور الدين.

وقف عصام ورفع يديه الاثنين:

رئيسا للحرس الجمهوري بمخصصات وزير ولائي!

ضحك عصام وقال الظاهر أنا برضه حظي ما تمام، لكن ما مشكلة في أول تعديل بتكون البترول والثروة المعدنية من نصيبي!

الزين محمد عبد الرحمن.

وقال شيخ النور: دة الزين الكضّاب!

وزيرا للإعلام.

وقال شيخ النور: يا زول الناقصة تمت تب. الزول الكضّاب في المكان المناسب!

تسلم الزين قرار تشكيل الوزارة الجديدة وذهب ليرسله الى الإذاعة. في انتظار ان يذاع التشكيل الجديد في الاذاعة يبقي صوت الراديو عاليا في المسيد، يعلّق شيخ النور: بختك يا شيخ الطيب، الفراش دة الظاهر ما حيترفع لو ما الوزارة الجديدة اتذاعت.

يبقي معظم الوقت داخل بيته في استقبال زواره وقراءة العرائض وحل المظالم، يرسل كل بضع دقائق من يسأل: هل اذيعت الوزارة الجديدة؟

في اليوم السابع خرج والحزن باد على وجهه: لم تذع أي من قراراته حتى تلك اللحظة، أصدر قرارا بإقالة وزير الاعلام وإحالة مدير الاذاعة الي التحقيق وأصدر قرارا بمجانية العلاج واعادة الدعم الي سلع السكّر والخبز.

عاد إلي بيته مساء، تذكر زوجته التي اضاعت بموتها فرصة أن تصبح السيدة الأولي والبقرة التي كانت ستصبح البقرة الأولي، خلع ملابسه العسكرية ووضعها على مقعد بجانبه، رأي زوجته تواصل الشجار مع حيواناتها الاليفة وهي تتقدم نحوه في موكب من الأنوار، هبت نسمة برائحة السمك الميت ونوار شجر النيم، وفي حراسة القمر، نام في فراشه الي الأبد.

ممنوع تدخين الشيشة في السماء!

قبل ان تقع تلك الكارثة في تلك الجزيرة النائية النائمة في عمق نهر عجوز كان يبدو في مساره المتعرج وكأنه قد ضل طريقه في تلك المتاهة الاستوائية. كان الناس يعيشون في سعادة وفي هناء، يحصدون محصول العنب والمانجو ويأتي التجار لشرائه من كل الجهات ويبيعون للناس في المقابل ادوات منزلية واطعمة محفوظة، وحين ينتهي موسم الحصاد كان الجميع يعملون لجمع عسل النحل.

لقد كانت الحياة تمضي بسهولة، وكان الناس يعيشون حياة سهلة خالية من الامراض والمشاكل، وحين يبلغ الشخص ثمانين خريفا كان يبدأ الاستعداد لرحلة الحياة الاخري، وحين يحل ملاك الموت ضيفا عليه كان يتم استقباله بالحفاوة اللائقة بمبعوث الهي كريم، وتنثر الفتيات الورود في طريقه ويحمّل بجانب روح الرجل المسن بأقراص العسل والحلوي المصنوعة من السمسم ورحيق الزهور البرية.

وتضاء له القناديل الملونة.

لكن حادثا رهيبا وقع في الفترة الاخيرة قلب كل الموازين في الجزيرة، كان ذلك يوم بداية موسم الحصاد، اعتلي بعض الصبية وبعض الفتيات ظهر زورق صغير وخرجوا في جولة صغيرة داخل النهر لنثر الزهور داخله كما هي العادة كل عام. احتفالا بمقدم موسم الحصاد. كان الفرح يكسو وجوه الجميع وقد ارتدت الفتيات ثيابا ملونة وبدين من علي البعد كأنهم ازهار حية نمت فجأة علي صفحة الماء.

ما حدث ان ريحا قوية هبت فجأة وانقلب القارب، لقد كانت مفاجأة عقدت الالسن، وقف اهل الجزيرة يتقدمهم العمدة وهم يشاهدون مياه النهر الغاضبة تلتهم اجساد الصبايا، دون مغيث، لقد حسبوا ان شيئا ما سيحدث وان هؤلاء الصبية سيعودون الي الجزيرة، لكن ما حدث ان اجساد الموتي هي التي طفت الي سطح النهر بعد ايام من القلق والترقب.

كانت تلك كارثة، قال العمدة حزينا وهو يشارك في تشييع الضحايا: لقد جاء ملاك الموت من حيث لا نحتسب وضربنا من الخلف ، ساد شعور بالحزن في الجزيرة كلها لدرجة ان موسم الحصاد تأخر، وتساقطت الفواكه لوحدها في الجداول والمجارير وفسدت دون ان تجد من يحصدها وحين جاء التجار اكتشفوا انه لا يوجد محصول فواكه في ذلك العام، فجاسوا طرقات الجزيرة بمعروضاتهم من الالعاب البلاستيكية الملونة ومن مصنوعات الخزف، ومن علب الاغذية المحفوظة، دون ان يشتري الناس منهم شيئا،

حتي انهم حاولوا اخراج الناس من كآبتهم ليشتروا منهم شيئا، فنصبوا العابا غريبة، وقدم رجل بمصاحبة قرد عرضا صاخبا، رقص القرد خلاله وعزف علي الطبلة اغنية شائعة تُمجد الغرباء والشمس .

لكن العرض المدهش لم يجذب سوي بعض الاطفال الذين وقفوا من على البعد دون ان يرحبوا كالعادة بالغرباء او يشاركوا في احتفالهم.

لم يفقد الغرباء الامل رغم انهم عادوا الي زوارقهم وغادروا الجزيرة، مضي ايقاع الحياة نفسه، بدأ الناس يعودون لجني العسل وصناعة حلوي التفاح تغير شيء واحد، شعر الناس بعدم الامان وان الموت يمكن ان يداهمهم دون انذار كما فعل مع صبية احتفال بدء الحصاد

وحين جاء ملك الموت لاصطحاب شيرا العجوز التي بقيت تهيئ نفسها طوال اعوام لاستقباله، فكانت تشعل له المصابيح ليلا حتى لا يضل الطريق في عتمة أشجار الباباي والمانجو، وكانت تستخدم زيت جوز الهند كمعطر طبيعي حتى لا تزعجه روائح الشيخوخة. ورائحة روث الدجاج التي تعبق في الافنية بسبب القيظ.

فوجئ ملاك الموت حين قدم اليها بأن اهل الجزيرة استقبلوه بالحجارة بدلا من مواكب الزهور والمصابيح، ورجموه بالعصي حتى تمزق الجانب الايسر من ريش جناحه وتعين ان يختفي داخل الاحراش بضع ايام حتى ينمو له ريش بديل، وحين هدأت الضجة وأصبح بإمكانه ان ينهي مهمته المؤجلة، اكتشف ان العجوز استقبلته دون حفاوة في الظلام، في بيت تفوح

منه رائحة غائط متخمر ورائحة روث الدجاجات التي ملأت البيت بتراب هياجها لحظة وصول الملاك المرهق.

لكن القشة التي قصمت ظهر البعير حدثت بعد أشهر من بدء انتظام ايقاع الحياة. حين احتفلت القرية للمرة الاولي منذ عام كامل بزواج أحد الشباب، كان اسمه هامس وكان فتي رائعا كالبدر، وكان يساعد كل الناس، ولا يخلد للنوم مساء الا بعد ان يتأكد ان كل اصدقائه من المسنين قد اخلدوا للنوم بعد ان يساعدهم على استخدام الادوية المحلية التي تساعد علي مقاومة ادواء الشيخوخة.

احتفلت القرية بزواجه، كان موكبا مهيبا تقدمته فرقة من الموسيقيين المحليين على ايقاع النقارة التي هزت سكون الجزيرة ونثرت الورود في الساحات، ونسبة لأنه لا يوجد رجال للشرطة فقد تولت فرقة من شباب الجزيرة تنظيم الناس حتى لا تقع حوادث في الزحام، وحتى لا يقوم السكارى المرحين بدهس الاطفال ببهجة.

وحين انتصف القمر كبد السماء بدأت اخر مراسيم ليلة الزفاف بزيارة النهر المقدس،

تقتضي الطقوس ان يزف العروسين الي النهر حيث يغتسلا بمائه المقدس كفأل بمواسم الخصب والانجاب المرتبطة بالنهر العتيق.

كان ذلك هو الفصل الثاني من المأساة فقد تقدمت العروس الي النهر تحت ضوء القمر بجانبها عريسها الشاب الذي مد يده الي النهر كالعادة

ليحمل الماء الي عروسه، في لمح البصر اختفي العريس فجأة ولم يسمع الناس او يروا سوي شيء ضخم اطاح بالعريس في جزء من الثانية، كان تمساحا ضخما وجه ضربة قوية لفريسته القت بها في عرض النهر الهائج بفعل الرياح، سادت حالة من الهلع وحاول البعض اللحاق بالعريس قبل ان يلحق به التمساح، لكن القوارب الصغيرة التي احضرت علي عجل لم تتحرك بسبب الرياح القوية، بقي الجميع ساهرين بين الحزن والدموع علي امل ظهور الفتي الذي كان يجيد السباحة لكن يبدو ان الضربة القوية التي تلقاها من التمساح والرياح العاتية عطلت فرصه في النجاة .

بعد يومين تعرفوا في جزيرة صغيرة غير مأهولة علي بقية عظامه، بقيت الجزيرة كلها عدة اشهر في حالة حداد، اكتست مظاهر الحياة بالبؤس قبل ان تتضح معالم اضراب عن الحياة توّج بهجوم قاده بعض الشباب علي معبد الالهة القائم في وسط غابة استوائية في قلب الجزيرة، وقاموا بإحراق المعبد وانهالوا بالضرب علي التماثيل التي تصور قديسين يجلسون مع الملائكة في ساعة القيلولة، ولاذ حارس المعبد والشيطان الذي كان يحاول اغواءه ليسمح له بقضاء القيلولة في احدي غرف المعبد، لاذ الاثنان بالفرار لدي بدء الهجوم الغوغائي الذي انتهي بإشعال النار في المعبد

اعتبرت الحادثة اخر مسمار في نعش السلام القديم مع الالهة، وقال العمدة: من الان سندبر شئون حياتنا دون الحوجة لآلهة لا تحترم التزاماتها، وختم خطبته القصيرة امام حشد اهل الجزيرة بقوله: ان الالهة تخلت عن دورها في رعاية الحياة وتفرغت لرعاية الموت.

وصل في اليوم التالي مبعوث من الالهة، كان يرتدي ملابس غريبة بدا فيها مثل طائر يعبر باتجاه الزمن، طلب مقابلة العمدة الذي استقبله بفتور في صالة بيته، كان العمدة يحاول تخفيف القيظ بمروحة من السعف ولم يكترث حتى بسؤال الضيف الكبير ان كان راغبا في شراب القهوة.

تركه يجلس في المقعد المعد للضيوف غير المرغوب فيهم وهو يلملم أطراف ثوبه حتي لا يعلق بها روث الدجاج.

قال العمدة بعد مسافة صمت: ماذا أستطيع ان أقدم لك يا سيدي؟

قال الرجل هل تأمر سعادتكم بكوب ماء.

نادي العمدة بتثاقل على أحد اولاده وامره بإحضار كوب ماء للضيف، ثم شعر بالحرج وسأله ان كان يرغب في تناول كوب من القهوة.

شرب المندوب القهوة بطريقة مختلفة عن البشر حتى ان العمدة لاحظ انه كان بإمكانه مشاهدة السائل الاسود وهو يتدفق داخل جسم الغريب من الداخل. اوقد العمدة لفافة تبغ متجاهلا حقيقة ان المندوب يتضايق الي حد الموت من دخان التبغ.

قال المندوب، جئنا لتسوية المشكلة التي نجمت عن إهمال بعض حرّاس النهر.

قال العمدة: ان كانت الالهة تفشل في حراسة النهر فكان الاجدر ابلاغنا لنتدبر امورنا!

قال المندوب: نحن نتأسف لذلك الخطأ وسيعاقب المهملين. وقد اوقفوا جميعا قيد التحقيق، لقد ذهبوا في المرة الاولي لمشاهدة فرقة مسرحية كانت تؤدي عرضا متجولا يقوم فيه قرد مدرّب بأدوار خليعة، معتقدين خطأ ان الحارس المسئول عن العواصف كان مستيقظا وقد باشر وردية الصباح، ليكتشفوا فيما بعد انه أخلد للنوم اثناء مراقبته سباقا للحمير كان يعبر بجانب ضفة النهر! بعد أن استجاب لدعوة بعض السكارى المتجولين وتناول معهم كأسا واحدا من نبيذ محلي.

قال العمدة قبل ان نعيد بناء المعبد نريد ان نري الموتى بيننا مرة اخري.

وقال المندوب: سنسعى للإفراج عنهم، لكن الامر قد يستغرق وقتا أطول لأن بعض الموتي تعرضوا للنفي الي كواكب بعيدة بعد ان قادوا مظاهرة بسبب سريان شائعة انهم قد يرسلون الي لأزمنة أخري. كما أننا لا نستطيع ضمان عودتهم لاستئناف حياتهم من نفس النقطة التي توقفوا فيها. قد يستأنفون حياتهم من وقت مبكر قليلا او ربما من وقت لاحق بعدة سنوات!

وقال العمدة: كما نطالب برفع العمر الافتراضي عشرة سنوات اخري.

تنحنح المندوب وشرب جرعة ماء قبل ان يقول: سأنقل طلبكم وسيجد ذلك كل العناية.

وقال العمدة: ونريد فترة للإنذار قبل الموت تكون على الاقل خمسة مواسم فيضان.

تردد المندوب: لدينا الكثير من العمل ونظام الانذار المبكر قد يضيف اعباء جديدة، لكننا سنلتزم بإعادة كل ميت يموت قبل موعده.

. ثم قال لكن اود ان أنبه سعادتكم الي وجوب ان تحترسوا من العقارب التي تمرح في الازقة صيفا لأن نظام الحماية المصمم ضد المصائب الطبيعية لا يشمل هذه العقارب التي قد تؤذي الاطفال.

عندها صفّق العمدة مناديا ولده وامره بإعداد طعام الغداء للضيف الكبير. كما أمر بإحضار رقعة الشطرنج ليلعب مع ضيفه الكبير قبل احضار طعام الغداء. شعر المندوب ببعض الراحة حتى أنه خلع بدلة الريش البيضاء وعلقها في شجرة المانجو العتيقة في وسط الفناء فبدت وكأنها على وشك الطيران قبل أن يطلب كأسا من النبيذ المحلي ويسحب نفسا طويلا من دخان الشيشة قائلا: أنها ممنوعة هناك.

ذات صباح قائظ في القرن الماضي كنت اخلد للنوم تحت أشجار النيم حين أيقظني شخص ما، نظرت فوجدت رجلا نحيلا يشبه منظره فزّاعة الطيور، انتبهت الي انه كان جارنا عبد القادر رغم انه بدا لي لحظة خروجي من الحلم مثل قادم من العالم الآخر بهيكله العظمي النافر وسمات الحزن في عينيه.

أصدر لي أمرا: أمشي جيب لي شريط نسمعه!

انتبهت الي استخدامه للفظة الجمع وعرفت لاحقا انه كان يخجل من الاعتراف بالحب على رؤوس الأشهاد، فاستخدم كلمة نسمعه ليشير الى عروسه التي لم تكن قد مضت سوي بضع أيام علي زواجه منها!

أحضرت له شريطا للمطرب مجذوب اونسة، بدا لي اختيارا مناسبا لشخص يريد ان يفرح للمرة الاولي في حياته..

حين سلمته الشريط، نظر اليه بتشكك وقال: فيه شنو دة؟.

اوضحت له ان بالشريط اغنيات للمطرب مجذوب اونسة.

فاستفسر قائلا: وبغني بقول شنو؟؟

احترت في سؤاله وقلت مستعيرا عبارة سمعتها من شخص ما وهو يتحدث عن فتاة كانت تبحث عن زوج يريحها من عناء رعي البهائم بطريقة مبتكرة آنذاك، كانت ترسل رسائل عشق الي عدد من الشباب مستخدمة نفس العبارات ونفس الاشواق حتي انها لم تكن تغير سوي الاسم في البداية، ويبدو انها كانت تنسخ الرسائل من كتاب للرسائل، كان ذلك الشخص قد رد علي سؤال حول فحوي ما يدور في رسائل تلك الفتاة بقوله : والله عن الحب وكدة . وبمناسبة الرسائل التي تنسخ للعشاق بالجملة من نفس الكتاب تذكرت قصة امام جامع في إحدى القري القريبة من دنقلا كان ينسخ خطب الجمعة من كتاب مصري للخطب، تساءل في خطبته قائلا: ما هذا الفساد الذي يحدث في شارع عماد الدين؟

قلت له والله بيتكلم عن الحب وكدة! وحين وجدت انه وقف مترددا دون ان يبدو عليه انه فهم ما قلته، شرحت له بأنه يقول في اغنياته مخاطبا حبيبا غائبا: ويقول له انا احبك ويطلب منه العودة..

بدا عليه الضيق وقال: لسة في ناس شغالين بالحجج الميتة دي، ألقى بالشريط ارضا وقال: ما عندك طنبور..

حاولت ان اشرح له ان كل كلمات الاغاني: موسيقي، دلوكة، طنبور، جن احمر، تدور كلها حول نفس المعني، بل ان بعض اغنيات الطنبور بها بكاء دون حبيب، مجرد ان فارق أحدهم دياره الي بلد اخر يبعد بضع كيلومترات تصبح مناسبة للبكاء ثم موضوعا لأغنية لاحقا..

فكّر قليلا وقال: ما في غناء بتاع رجال؟؟ والحقيقة انني لم افهم ما يعنيه تماما بغناء بتاع رجال، تذكرت قصة صديقنا المزارع الذي كان يمارس هواية غريبة: يشكو طليقاته في المحكمة الشرعية لمجرد التسلية، او كما كان يقول: انا عارف نفسي بخسر القضية لكن داير اتلتلهم في المحاكم! وكان هناك قاض شرعي شهير يحكم عليه كل مرة بخسارة الدعوي ويلزمه بالمصروفات وذات مرة جاء غاضبا بعد ان خسر إحدى قضاياه وأعلن لي:

شيخ النهار دة ، (اسم القاضي) ما يشوف ليه محكمة بتاعة رجال، ايه اللي طلّق دة وعرّس دة!

فكّرت وانا اتجه الي البيت: ما دامت هناك محاكم بتاعة رجال لابد انه يوجد ايضا غناء بتاع رجال!

احضرت له شريطا اخر به اغنيات للفنان محمد الامين، اخذه ومضي..

في الطريق الي الجامع لأداء صلاة الجمعة وجدت الزين الكذّاب عائدا من الصلاة سألته عن موضوع الخطبة فقال: والله كانت عن الدين وكدة!

لدي عودتي عاد عبد القادر مرة اخري فهمت منه ان العروس لم تفهم

اغنيات محمد الامين ، وانهما لبثا زمنا طويلا في انتظار ان تنتهي اغنية زاد الشجون التي بدت لهما مثل قدر وطني مشئوم دون نهاية، ورغم ان عبد القادر كان مشهورا بالكسل وكراهية الحركة حتى انه كان يجلس أحيانا عدة أيام في مكان واحد لا يغادره الا لضرورة القصوى. لكنه أوضح رأيه القاطع في الحب المكرّر دون نهاية: دة عصر السرعة معقول الواحد يقعد تلاتة يوم يسمع ليه أغنية واحدة!

انتهي الي القول: الكلام سمح بلحيل علّي ما فهمناه، دايرين لينا حاجة خفيفة تخلص بسرعة وواحد قبّل واحد بحّر!

كان الزمان موسم الدميرة وحين يرتفع مستوي الماء، يرتفع الجنون عند الناس كما يقول كبار السن، ويتوافق ذلك مع ظهور عبد الرحيم ود السكة الذي لم يكن هناك من يعرف له اصلا وكان يختفي في الشتاء بمجرد انحسار الدميرة وانحسار موسم جنونه كما يقول اهل القرية ليظهر مرة اخري مع اواخر الصيف، حتى ان شيخ النور كان يصيح بأولاده: عبد الرحيم ظهر، خلاص الخريف جايي، فيسارع الاولاد لتجهيز زبل البهائم لوضعه على السقوف تحسبا لاحتمال سقوط المطر لدي حلول موسم الدميرة.

ود السكة كان يرتدي بمجرد انتهاء بياته الشتوي وعودة اخر طائر مهاجر الي الشمال، كان يرتدي بذلة يبدو داخلها مثل رجل أمن، ذات مرة قرر قضاء الليل معنا، تناولنا العشاء من كسرة القمح الرهيفة المعروفة بالسناسن باللبن وشربنا الشاي الأحمر، ثم اشرت له على العنقريب الذي سيقضي

فيه الليل.. وذهبت لأخلد للنوم في فناء اخر لعلمي بأنه يستيقظ كثيرا اثناء الليل.

كان عبد القادر لا زال يمد يده يطلب حسنة موسيقية، لفت نظري قوله انه يريد حاجة تخلص بسرعة، فتذكرت مقولة أحد المطربين ان حمد الريح يسك الاغنية كأنه شخص يطارد فرخة لذبحها، احضرت له شريطا لحمد الريح وشرحت له ان اغنيات الشريط ربما توافقه.

كنت مشغولا بإحصاء النجوم في لوحة السماء، التي بدت مشبعة بغبار كوني ابيض، حين استغرقت في النوم كانت اللوحة لا تزال معلقة في ذاكرتي ثم انتبهت بعد قليل ان بعض النجوم كانت تتحرك في الذاكرة، قبل ان اعرف انني كنت مستيقظا، وجدت شخصا ضخما يسد منافذ النجوم واقفا فوقي، كان ود السكة، قلت له: مالك الجن قام عليك؟

نفى ذلك وقال انه يشعر بآلام في بطنه ويريد ان يشرب نعناعا دافئا.

عرفت انه كان جائعا ومددت له بقرص مسكن للألم وطلبت منه ان يعود لفراشه. لكنني سمعته يطنطن غاضبا وهو يرتدي ملابسه ويخرج. كان الوقت لا يزال في أواخر الليل، وعرفت انه سيذهب لإيقاظ شخص ما لكنني استغرقت في النوم..

عاد عبد القادر بعد قليل وألقي بالشريط ارضا قائلا:

انعل ابو الحب بالحالة دي؟

سألته عن المشكلة فقال: زولك دة قوّم نفسنا. شوف لي حاجة تانية..

قلت له: انت لي متين حتقعد تغيّر في الشرايط، الدميرة جات..

أعلن قراره النهائي بهدوء: انا تاني ما راجع للزراعة!

أوضح: عاوز أسافر العُمرة في الشتاء!

في هذه المرة لم أرهق نفسي بالبحث عن شيء مناسب احضرت له شريطا اخر دون ان انظر الي محتواه.

قال جارنا ود النور: صاحبك أمس أيقظني بعد منتصف الليل ، وقال عاوز دواء للبطن وطلب أنادي البصير يكوي ليه مكان الألم،، أيقظت زوجتي من النوم، قامت بغلي بعض العشاب، حرجل وشمار وتمر هندي، لم يعجبه فيما يبدو طعم الدواء فطلب مشروب حلبة باللبن، وقطعة خبز، يبدو أنّ مرضه كان مجرد جوع شديد، فقد تحسنت حالته بسرعة بمجرد أن أكل الخبز وشرب الحلبة باللبن، ولبثت مستيقظا معه طوال الليل يحكي قصصه ويظهر انه كان يحتاج بجانب الاكل الى شخص يستمع لأكاذيبه التي لا تستطيع الانتظار حتى الصباح.، كان يحكي قصصا طويلة وحين استغرق في النوم كان يوقظني ويعيد حكاية ما فاتني في قصته.

في النهاية اشرقت الشمس فقلت له هيا بنا للبصير لكي يكوي بطنك! فقال لي لا لا الحمد لله انا بقيت كويس!

قلت لعبد القادر: انت شكلك كدة يا زول ماك مسافر عمرة ولا

غير عمرة.!

كانت الدميرة قد انصرمت وحل الشتاء واختفي ود السكة في بياته الشتوي ووصلت اسراب الطيور المهاجرة من الشمال، ولازال عبد القادر مستمرا في شهر عسله الأبدي، يغيّر في الاشواق دون أن يعثر علي الفنّان المناسب.

الزول دة لو قابلته قول ليه يشوف ليه شغلة غير الغنا دة!

في الشتاء جاء والده وتشاجر معه: قوم يا ولد حصّل الموسم، اصلك ما نافع في الزراعة وكمان داير تبدأ الموسم على كيفك؟؟

ا ابوي انا ماشي العمرة!

عمرة تمشيها بسجمك؟ القريشات الساعدوك بيها اهلك المغتربين للعرس اشتريت بيها كلها حجارة بطارية وقعدت. اتحرك يا ولد قوم معاي هسع انا ماشي الحواشة..

يا ابوي خلاص بجي بكرة.

مافي بكرة الليلة.

يا ابوي خلاص انت أمشي انا بحصلك!

رجلي فوق رجلك!

ممكن امشي الجنينة دقائق اغير الشريط.

يا ولد امرق ما تضيّق أخلاقي!

وخرج عبد القادر من البيت، في قلبه غصة كلما رأي في الطريق امرأة كان الحزن يجتاح قلبه، سيمضي في الطريق الي الحواشات مثل هيكل عظمي.

ذات مرة كنا نسمر في المسيد بعد انتهاء اجراءات صلاة العشاء التي يتم تاخيرها قليلا في العادة لحين انتهاء نشرة موتي الساعة الثامنة مساء والتي كان شيخ النور يعلق عليها قائلا:

الحي الما سمع اسمه الساعة تمانية!

وحين لا يرد اسم شخص يعرفونه للاحتفال بموته ببرنامج يقضي علي رتابة الحياة في الصيف، يصيح شيخ الطيب بعد نهاية النشرة بغضب: يا ولد اقفل الرادي دة ما فيهو حاجة! ومع اسم اخر ميت من الغرباء تقام الصلاة علي عجل ويتبعها بسرعة طعام العشاء، خبز السناسن باللبن والطبق السرمدي: القراصة بالويكة.

ثم يخلد كبار السن الي النوم في بيوتهم ويبقي بعض الشباب وبعض العجائز المتصابين، الذين يبقون علي أمل ظهور أحد أكياس القمشة التي تدفن نهارا في التراب وتعود اليها الحياة ليلا.

قال أحد الصبية انه شاهد عبد القادر قبل ايام وهو يشارك في حصاد محصول القمح وهو جالس أرضا، ضحك عصام وهو يبصق السعوط من

فمه في شريط طويل مصحوب بخط موسيقي وقال: عبد القادر تبقت ليه سنة!

ضحك شيخ النور وقال له : انت بقيت زي حاج منوفل داير تحدّد للناس متين يزورهم ملك الموت؟

ستمضي حياته علي نفس الوتيرة أحلام بالسفر تبدأ مع هبوب أنسام الصيف وتنتهي مع هبوب اول انسام ريح الشمال، يبصق السعوط ويغير الشرايط ويعلن: انعل ابوها دي بلد! يحلم برحلة سيعود منها غانما وكان يأسف أحيانا على تأخرها، يوضح:

لو سافرت الزمن داك هسع كان يكون عندي كم لوري في الخط!

يصر على الزوغان احيانا من الحواشة ليغير الشرائط ويجدّد اشواقه، حين تنبأ عصام بموته كان ذلك اواخر الثمانينات من القرن الماضي، كان عليه ان يكافح عشر سنوات اخري ليمضي بعدها في الرحلة الاخيرة، الرحلة التي ستُفضي به الي نشرة الساعة الثامنة مساء.

جمال يعثر أخيرا على خاتم المُنى

ذات يوم كنت أتجول في سوق الجلود في مدينة أمدرمان وفجأة في الزحام رأيت وجها أعرفه، مجرد أن رأيته قفزت بي الذاكرة عبر السنوات لأراه هائما في طرقات القرية يحمل طنبوره، صانعا من أنغام حبه السعيدة حواجزا بينه وبين العالم النائم في سبات مواسم ما بعد الحصاد. ثم وهو يبيع خضرواته للعابرين وللغجر. كان حالما حتي وهو يبحث عن الثراء، وجدته ذات مرة وقد تأبط طنبوره وامتشق عكازا ضخما ووضع فوق رأسه عمامة ضخمة، حين سالته الى أين يعتزم السفر، أعلن لي:

أنا ذاهب لأبحث عن خاتم المني، اكتشفت أنه سمع بالخاتم من أغنية شهيرة للبلابل. بعد أشهر من التجوال في الصحاري والبراري عاش فيها على لحم الغزلان والأرانب البرية، عاد وقد امتلأ جسده بالجروح من كثرة استخدام الامواس لفصد السموم من جسده، قال لي أي حجر رفعته من

مكانه بحثا عن خاتم المني وجدت تحته عقربا لدغتني! كان غارقا في أحلامه حتى وهو يبحث عن السلطة، ترشح مرة لانتخابات اللجنة الشعبية وألقي كلمة في الناس الذين توقفوا للاستماع له أثناء حصاد القمح فيما كانت نغمات شاردة من طنبوره تشكل موسيقي خلفية لخطبته الحماسية.

وحين خسر الجولة الاولي أعلن:

الناس بقت ما عارفة مصلحتها وين.

وحين خسر الجولة الثانية أعلن:

الكيزان رشوا الناس بالسُكّر.

أمّن شيخ الطيب علي كلامه بسؤال: زولين واحد جاء شايل سكّر، والتاني طنبور تصوّت لي منو فيهم؟

وما بين خطيّ المال والفن المتوازيين سارت حياته، تمر عليه ايام يعتكف فيها داخل المسيد ويهمل طنبوره، يحب الدعاء بعد الصلاة خاصة في ايام العزاء بعد وفاة شخص ما.

اللهم ان كان محسنا فزد في احسانه..

يستغرق هو في البكاء بنشيج متقطع.

اللهم لا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا:

يختنق صوته المتهدج في الدموع..

لا يُثير بكاءه أية شجون.

لديه مشكلة واحدة تقدح في نزوات ورعه: لا يصلي.

يقول شيخ النور وهو يضرب كفيه ببعضهما بعد ان وضع السعوط في فمه، فيما يجفف جمال دموعه بكم جلبابه:

انت وكت ما بتصلي، واجع قلبنا كل يوم مالك؟ نحن ناقصين، مش كفاية الولد ساقوه ناس الجيش بالقوة من السوق ويمكن بكرة يودوا الحرب تاني ما نسمع خبره. مش كفاية علينا الجوع والغلاء!

قوم يا ولد سيب الاستهبال البتعمل فيه دة وصلي صلاتك.

يقول هو من خلال دموعه:

والله (واجبوكن!) واجب بلغة الدناقلة! لكن..

صلوا العشاء انا بنتظركم في الضُل دة!

يقول شيخ النور: ضُل.. ويوجه كلامه

للعم نور الدين والد جمال:

يا حاج ولدك دة ما نصيح

شوفوا ليكم فقير كارب اربطوا الولد دة عنده. لو ما ادق دق الرخصة الجن دة ما بيمرق!

ولأن دورة الحياة والموت تمضي، يصيح شيخ الطيب: ارفع صوت الراديو يا ولد..

يعرف الناس ان الساعة الثامنة دقت وحان اوان النشرة من اذاعة امدرمان التي تسميها الحاجة نورا: اذاعة الميتين! لأنها هي ايضا لا تتوقف لتستمع اليها الا عند الساعة الثامنة. مثلها مثل شيخ عبد الرسول الذي اشتهر بالبخل وكان لا يفتح الراديو الا عند الساعة الثامنة مساء ليستمع لنشرة الموتى ثم يغلق الراديو ليقتصد في حجارة البطارية. ومرة قال له شيخ النور:

انت باين عليك بتسمع النشرة دي عشان تتأكد إنك حي ما دام اسمك ما ورد!

يصيح شيخ الطيب اثناء النشرة: اسمعوا الزول السمعنا اسمه مع الميتين دة ما ياهو زبير ود حاج علي قريب ناس امونة شيخ الدين، كان سافر من اربعين سنة وقالوا سكن كوستي.

ويؤمن أحدهم على كلامه.

فيعلن شيخ الطيب مبتهجا: واجب نفرش عليه يا اخوان، انشاء الله يوم واحد معقول زول مهم زي دة تنتهي مراسم عزاءه بانتهاء مراسم الدفن.

وتقام الصلاة: اللهم ان كان محسنا.. ويرتفع صوت بكاء جمال من خارج صفوف الصلاة.

حتى اليوم الذي شهد بداية قصة حبه وضياعه. كان الزمان موسم الدميرة، درجة الحرارة عالية جدا حتى إنّ النسوة كُنّ يمنعن اطفالهن من اللعب في الخارج لأن العظام حسب اعتقادهن، تكون في ذلك الموسم ليّنة وتنكسر بسهولة. حرارة الجو لم تجعل عظام جمال ليّنة، بل أصبح قلبه ليّنا. كان قد استعاد طنبوره وتوازنه العلماني وعاد يسرح في ضوء القمر ولم تعد كل احزان العالم كافية ليذرف من اجلها دمعة واحدة. جاءت الي القرية اسرة من الغجر، كان رب الاسرة رجلا مسنا سقط من على حماره فانكسرت ساقه، ولم تفلح طوال أشهر كل طرق العلاج المحلية، وفي النهاية شدّت الاسرة التي تهيم شمالا الرحال الي قريتنا بعد أن وردت إليهم أنباء عن وجود رجل في منطقتنا يشفي الكسور بسرعة خارقة.

ذهب جمال يبيع لهم بضاعته من الخضروات فرأي أجمل فتاة يراها في حياته، تأبط جمال طنبوره وبقي الليل كله يعزف فوق كثبان الرمال شرق القرية. كان صوته الجميل يتسرب الي القرية في موجات متقطعة حسب اتجاه الريح مشبعا بضوء النجوم ورائحة رطوبة المزروعات واشجار النخيل. حين ارتفع صوت اذان الفجر كانت القرية كلها لا تزال مستيقظة على وقع انفاس الحنين المترسبة في قاع ليل دون نهاية.

بعد اسبوع غادرت الاسرة الغجرية القرية بعد ان تماثل كبيرها للشفاء. غادروا فجأة ليلا ودون سابق انذار. في الصباح كان جمال اول من اكتشف رحيلهم حين لم يجد في معسكرهم الصغير سوي بقايا نار خامدة وبقايا روث حميرهم.

انطلق في أثرهم متأبطا طنبوره يجوب القري الواقعة بحذاء نهر النيل وتلك الغارقة في الصحراء. يتوقف مساء في اول مسيد يصادفه ليقضي الليل قبل ان ينطلق صباحا. يتجمع الناس في الاسواق حول هذا العاشق المتجول ثم ينفضون قبل ان يستأنف هو بحثه.

أرسل والده بعض شباب القرية لإعادته لكنه رفض العودة معهم، كان يعمل في اثناء تجواله في قطع التمور او تشييد زرائب البهائم من أغصان شجر السنط، ليضمن بعض المال الذي يكفي لمنصرفات تجواله.

بعد عام كامل، فقد والده الامل في عودته واستسلم لقدر ان ابنه الوحيد فقد عقله. عاد جمال فجأة، عاد متأبطا طنبورين، أحدهما كما أعلن اهداه له صديق رافقه في موسم قطع التمور وكأنه اراد ان يحقق مزحة الرجل العجوز الذي التقاه في أحد الازمنة، وحين رآه يمسك في طنبوره كغريق يمسك في لوح نجاة سأله:

عندك ملوية؟ (اي عمل) فقال جمال: لا

وسأله العجوز: عندك ماعز لبن؟

فرد جمال: لا.

فقال العجوز بصبر نافذ: عندك شنو طيب؟

قال جمال: عندي طنبور.

فقال له العجوز منهيا النقاش: سوهن اتنين!

عاد جمال الي القرية، دون أن يحقق شيئا سوى نبوءة الرجل المُسن، عاد متأبطا طنبورين.

قال بعض طلاب المدرسة الثانوية أنه استنسخ ذلك الطنبور الجديد لأنه يشبه طنبوره القديم كأنهما توأم، وقالت السرة التي تسافر ايضا شمالا في موسم قطع التمور: نام جمال ذات ليلة ومعه طنبوره في مزار أحد الاولياء الصالحين وحين استيقظ صباحا حدثت المعجزة وجد طنبورا اخر طبق الاصل من طنبوره.

بعد صلاة العشاء كان يجلس ليدندن احيانا في الفسحة أمام المسيد وحين يغني كان شيخ النور يداعبه: يا زول ما تلم علينا العقارب! الدوا بقي غالي وفي زمن الكيزان دة ما في مروة نتحمل بيها لدغة العقرب زي زمان! الواحد زمان كان يتلدغ، يقتل العقرب وينفّض ملابسه ويواصل شغله زي العضته نملة!

ويقول عصام: يا اخوانا الشتاء الفات دة البرد كان اشد من العام المضى!

قال شيخ النور: لا ابرد ولا شيء، كل القصة نحن ضعفنا شوية، الكان بيقابل الصباح بمديدة حلبة ولا عصيدة دخن بالسمن البلدي بقي يشرب شاي سادة ومرّات بدون سكر.

وقال الطاهر الحزين بسبب ترك أحد اخوته للمدرسة:

اخوانا قدر ما ندفر فيهم لي قدام قدر ما هم راجعين لا ورا! ونظر شيخ النور الي جسم الطاهر الضخم القوي وضحك قائلا: إذا دفرتك انت ما جابت نتيجة تاني الا نجيب ليهم تركرك! (جرّار زراعي بالدارجة!)

ضحك عصام تذكر أن مغتربا جاء بعد سنوات لقضاء العطلة في القرية وحين التقي الطاهر اندهش لأنه الوحيد الذي حافظ علي ضخامة جسمه وقوته، سأل الطاهر عن أحواله فرد قائلا: بخير نسأل العفو والعافية.

فضحك المغترب وقال: أسأل العفو بس العافية راقدة!

قال حاج محجوب: حيعمل شنو كل يوم طاردنهم من المدرسة، جيبوا حق الكتب وجيبوا رسوم الماعارف شنو ودمغة الجريح.

يغني جمال:

اعمل ليك ايه لو ترجع لي تاني

أفرش ليك ورود واعزف ليك اغاني

يقول الطاهر: جوة المسيد ولا برة حياتك كلها دموع.

طلب والده مساعدته: تمشي معاي بكرة الحواشة يا جمال ، نزرع شوية مريق قش للبهائم. وقف مع والده يسقيان احواض المريق حين سمع صوت البص المسافر الي امدرمان، ألقى بالطورية جانبا حين سمع صوت صفارة

السائق تنطلق في الفضاء بلحن:

اعمل ليك ايه لو ترجع لي تاني.

استأذن من والده:

حأرجع بعد شوية.

ركب البص ولم يره والده مرة اخري الا بعد أكثر من عشرة سنوات.

كان قرن كامل قد انصرم حين رأيته في سوق الجلود وقد بدت عليه اثار النعمة، قلت امازحه: يظهر انك عثرت اخيرا علي خاتم المني!

ضحك وقال: في البداية تعبت شوية، جربت اي حاجة، عتالي، بعت الموية، اشتغلت حلاق تحت الشجر اليوم كلو شايل المرايا وجاري من الكشة، اشتغلت فقير، اكتب البخرات للنسوان،

قلت له لكن انت عندك خبرة في الشغل دة؟

ضحك وقال : كل خبرتي اني اتربطت قبل سنين عند شيخ علي الحزين تلاتة شهور ادقيت فيها دق الرخصة!

قلت له ممازحا: انت زول عاشق للجمال وفكي للنسوان لازم فتحت ليك مجال كبير تشوف فيه ناس حلوين.

ضحك وقال:

مرة عالجت لي واحدة مطلّقة جميلة جدا بالبخرات، وكت ما جابت نتيجة قلت ليها والله الجماعة قالوا العلاج تاني الا يبقي علاج من الداخل!

ضحكت وقلت: أها واتعالجت!

قال مبتسما: بقت زي الطلقة!

جاتني مرة غنية دايرة ليها حاجة تفك عارض العرس، عالجتها ليك علاج قاطع!

قلت ليه كيف؟ قال ببساطة: عرّستها

، أبوي وكت سمع رسل لي جواب قال لي انا جايي أطلقك من المرة دي وارجعك تعرس بت عمك. ابوي وصل من البلد، زوجتي اكرمته، وكت طلع مسافر سلمته شيك بمبلغ محترم، في الطريق سألته قلت ليه اها يا ابوي نطلق ونجي نعرس بت العم؟ مرّرر يده فوق الشيك في جيب الجلابية الفوق قصاد القلب و قال: شن دايربها، المُفلسة هي وابوها!

2005